أبو القاسم الشابي

شاعر الحياة والخلود

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

أبو القاسم الشابي

شاعر الحياة والخلود

إعداد ودراسة: هاني الخير

أعلام الشعر العربي الحديث /أبو القاسم الشابي/
شاعر الحياة الخلود
إعداد ودراسة: هاني الخيّر
سنة الطباعة: ٢٠١٠.
عدد النسخ:١٠٠٠ نسخة.
الترقيم الدولي: 7 - 95 – 410 – 9933 - 987
جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:
دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣
تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

((الـشعر يـا صـديقي: تـصوير وتعـبير. تـصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك مغنية ضاحكة لاهية أو مقطبة واجمة باكية، أو وادعة حالمة راضية، أو مجدفة ثائرة ساخطة. وتعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل، ملؤه القوة والحياة. يقرأه الناس فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم ودم وقلب وشعور، لأنهم يحسون أنه قطعة من روح الشاعر وعبق من عواطفه، أو فلذة حية من فؤاد الحياة)).

أبو القاسم الشابي

إضاءة

الشابي... شاعـر الحياة والخلـود

لعلّ أصدق وصف ينطبق على "الشابي" ما قاله الأديب الناقد "أبو القاسم محمد كرّو" في شهادة له عن هذا الشاعر الفذ، بما لفظه:

هذا النجم الذي هوى وهو في وهج ضيائه.

هذه الصيحة البكر المتفجرة من الأعماق، التي خمدت وهي في زهوة انطلاقتها....

هذا الشابي... شاعر الشعب والحرية، شاعر الحياة والخلود، شاعر الفجر المتألق والانبعاث الجديد. مَنْ من قراء العربية لا يعرفه.... ولا يردد أبياته الخالدة:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا بدّ لليل أن ينجلي

ولا بدّ للقيد أن ينكسِر

إن هذا الشاعر قد خرج بالأدب من حدوده الضيقة وطرائقه الميتة، وسما به من دنيا الخصوصيات والتوافه، إلى عالم مشرق جميل، يفيض بالنور والمحبة والخير والكرامة البشرية، ويعبر عن المطالب السامية للنفس الإنسانية، ويصور الجوانب الرفيعة في حياتنا، ويتجاوب في إحساس ووعي كاملين مع مطامح الشعب، مصوراً

آلامه وآماله، في توهج حار وجمال فاتن ويقظة مستنيرة تدعو إلى الحياة، وتثور على الذل وتحارب الظلم والطغيان.

في شهر آذار (مارس) من سنة /١٩٠٩م/ ولد أبو القاسم الشابي ببلدة "الشابيّة" إحدى ضواحي مدينة "توزر" كبرى بلاد "الجريد" بالجنوب التونسي. وهي بلاد ذات طبيعة خلابة ساحرة.

بدأ أبوه، القاضي الشرعي، في تعليمه بإدخاله إحدى المدارس التقليدية "الكتاتيب" وهو في الخامسة من عمره. وكان أبوه يحرص بشدة على تحفيظه القرآن الكريم. ولقد حقق الشابي رغبة والده، فما أن بلغ التاسعة من عمره حتى كان قد أتم حفظ القرآن الكريم بكامله. فدلّ هذا عن نبوغ كامن وعبقرية توشك أن تبهر الورى بأضوائها. ثم أخذ والده يعلمه بنفسه أصول العربية ومبادئ العلوم الأخرى، حتى بلغ الحادية عشرة. وفي خلال هاتين السنتين، طالع شاعرنا شيئاً ليس باليسير من الكتب الدينية والصوفية والفلسفية المتواجدة في مكتبة والده العامرة بنفائس الكتب.

وفي سنة /١٩٢١م/، وهو بعد في بداية الثانية عشرة من عمره، أرسله والده إلى العاصمة التونسية، حيث تم التحاقه بالكلية الزيتونية. واستمر يدرس بها العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج منها سنة /١٩٢٧م/. نائلاً شهادة "التطويع"، وهي أرفع شهاداتها الممنوحة في ذلك الحين.

والتحاق الشابي بالزيتونة وفي العاصمة، كان نقطة تحول هامة في حياته. وليس ذلك لأن التعليم بالزيتونة يومئذ، كان تعليماً عصرياً، وإنما لهذا الجو الجديد من الحياة الذي انتقل إليه الشابي، فوجد فيه كثيراً من الحرية، وكثيراً من الانطلاق وكثيراً من النشاط الأدبي. فمضى يثقف نفسه تثقيفاً ذاتياً، فقرأ أول الأمر روائع كتب المهجريين، أمثال:

ـ جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي. ثم أخذ يطالع أمهات الكتب الأدبية، كالأغاني، وصبح الأعشى، ونفح الطيب، والكامل، والأمالي لأبي علي القالي، والعمدة، وكتاب الصناعتين وغيرهما. ولجهل الشابي باللغات الأجنبية، فقد قرأ أهم ما ترجم من كتب الآداب الغربية. وكان يعيد باستمرار

قراءة كتب "لامارتين" و"جوتيه" ويعجب بهما إعجابه بالمعري وابن الفارض. وبصورة عامة كانت ثقافته عربية، ولكنه اطلع على اتجاهات الشعر الأوروبي، وخاصة الشعر الرومانسي.

وعلى أثر تخرجه من الزيتونة التحق بكلية الحقوق التونسية، فتخرج منها سنة /١٩٣٠م/. وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته، بذل الشابي نشاطاً أدبياً واجتماعياً كبيراً. فقاد حركة طلاّب الزيتونة التي كانت تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم والإدارة في الكلية.[1]

وفي هذه الأثناء سنة /١٩٢٩م/ نكب بوفاة والده المحبوب، ولقد رافقه عليلاً من بلد "زغوان" إلى "توزر" مسقط رأسه، وتجرع غصص مرضه، وطفحت الكأس بموته وهو في الخمسين من عمره، فاضطلع بأعباء عائلية كبيرة واختار طريقاً وعراً، فإنه ضناً بحرية الأديب والشاعر، لم يلج باب كسب العيش من المناصب الحكومية ورضى بحياة بسيطة على رأس أسرته "بتوزر" حيث تزوج، ولعلّ هذا الذي عناه بعضهم حين قال:

((كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه)).

وفي السنة نفسها أصيب بداء تضخم القلب، وهو في الثانية والعشرين من عمره، بيد أنه رغم نهي الطبيب لم يقلع عن عمله الفكري، وواصل إنتاجه نثراً وشعراً. وقد نشرت له سنة /١٩٣٣م/ بمجلة "أبولو" المصرية قصائد عملت على التعريف به في الأوساط الأدبية بالشرق العربي، وإلى أبي القاسم الشابي أوكل صديقه الدكتور أحمد زكي أبو شادي تصدير ديوانه "الينبوع" بمقدمة نقدية متميزة.

لم يكن الشاعر المريض يغادر "توزر" إلاّ في الصيف ويقصد المصايف الجبلية "كعين دراهم" بالشمال التونسي سنة /١٩٣٢م/ و"المشروحة" ببلاد الجزائر سنة /١٩٣٣م/.

---

(١) الشابي حياته ـ شعره. أبو القاسم محمد كرو. منشورات المكتبة العلمية ـ بيروت ط١ /١٩٥٢/ ص٢٤ ـ ٢٧.

وشرع أثناء مصيف سنة /١٩٣٤م/ في جمع ديوانه "أغاني الحياة" بنية طبعه بمصر، حيث تطوع الأستاذ أبو شادي للإشراف على طبعه، فانتسخه بنفسه بحامة الجريد، مستعيناً ببعض أدبائها، لكن باغتته المنية وحالت دون ما نوى. فقد داهمه المرض وقصد تونس يوم ٢٦ من آب (أغسطس) سنة /١٩٣٤م/ وبها فارق الحياة يوم ٩ تشرين الأول (أكتوبر) سنة /١٩٣٤م/، وهو لم يكن عند موته قد بلغ السادسة والعشرين عاماً، ثم نقل جثمانه إلى بلدة "توزر" حيث قبره.

نحيف الجسم مديد القامة، قوي البديهة، سريع الانفعال، حاد الذهن، يراه أصدقاؤه بشوشاً، كريماً، وديعاً، متأنقاً، طروباً لمجالس الأدب يحب الفكاهة الأدبية. ويراه من لم يخالطه حيياً محتشماً ويعرف منه هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يبديها لخاصة خلطائه في غير تحرج متى اجتمع بهم ويجاهر بها العموم في شعره ونثره. وكان محباً لبلاده، صادق الوطنية، يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة، حاول جهده أن يحققها في أثناء حياته القصيرة قولاً وعملاً[1]

أجل لقد كان الشابي مؤمناً بالحياة، ومؤمناً أيضاً بحق شعبه فيها. لذلك وجدناه في الطليعة المكافحة عن حقوق الشعب إبان الاحتلال الفرنسي لتونس، والمدافعين عن آماله والمعبرين عن آلامه وطموحه[2]

وعندما دعا الشابي إلى ضرورة إيجاد أدب جديد يتصل بالحياة، ويعبر عن مشاكل المجتمع ومطامحه، حمل الهدامون فؤوسهم وجاؤوا إليه مهرولين وهم يتصايحون: أين هو الكافر؟! أين هو الخيالي؟ أين هو الناعي؟ علينا الركود والجمود. وعبثاً حاول الشابي أن يفهمهم حقيقة الأدب وواجب الأديب في هذا العالم الحديث وحضارته الشامخة، وذهب سدى كل ما أعلنه فيهم من مفاهيم جديدة للأدب وقيم حقيقية للشعر ورسالة الشاعر[3]

لقد أفنى روحه في التغني للحياة وفي إيقاظ الأرواح الخامدة، ولم يسع وراء منصب حكومي أو كسب شخصي، شأنه في هذا شأن المصلحين. وربما خيل

---

(١) أغاني الحياة. أبو القاسم الشابي. الدار التونسية للنشر /١٩٦٦/ ص ١٤ ـ ١٥.

(٢) كفاح الشابي أو الشعب والوطنية في شعره. دار الشرق الجديد ـ بيروت /١٩٥٤م/ ص٥٢.

(٣) المصدر السابق ص٢٣.

لشاعرنا في وقت من الأوقات أنه يفني حياته عبثاً، وأنه يحترق من أجل الآخرين، دون أن يلقى منهم الاستجابة المشجعة، بل إنهم ربما أنكروه. وأنه ليحزن لذلك أشد الحزن. وقد كان هذا الإنكار حرياً أن يصرفه عن طريقه، ولكنه مع ذلك لا يملك إلاّ أن يستمر في رحلة الحياة. وربما دفعه اليأس في بعض الحالات للفرار إلى الغاب، من أجل أن يلتمس لروحه الثائرة الطمأنينة والسكينة:

هـا أنـا ذاهـب إلى الغـاب يـا شـعبي

لأقـضي الحيـاة وحـدي بيـأس

هـا أنـا ذاهـب إلى الغـاب علـي

في صـميم الغابـات أدفـن نفـسي

وبدهي أن الشاعر لم يذهب حقاً لكي يعيش في الغابات، ولكنه اضطر أن يتقوقع داخل شرنقة روحه، يجتر آلامه وأحزانه، ثم يفضي بها بين الحين والحين، على حد تعبير الناقد الأديب د.عز الدين اسماعيل.

وهنا يبرز أمامنا وجه جديد من تجربة الشابي، يلتقي فيه مع كثير من الشعراء الرومانسيين، ونعني بذلك الشعور بالغربة. فقد اضطر هؤلاء الشعراء، أمام أوضاع بلادهم السياسية والاجتماعية المنهارة، ونتيجة لعجزهم عن القيام بدور إيجابي في توجيه الحياة والناس، اضطروا إلى الفرار من مجتمعهم. ولكن أين المفر؟! إنه فرار إلى داخل النفس وإن اتخذ من القرية في الريف أو من الغابة ملاذاً.

والشعور بالغربة شعور أسيان وحزين، يورث صاحبه الكآبة وإن اجتمعت له كل أسباب اللهو والتسلي:

مهمـا تـضاحكت الحيـاة فـإنني أبـداً كئيـب

أصـغي لأوجـاع الكآبـة، والكآبـة لا تجيـب

في مهجـتي تتـأوه البلـوى، ويعـتلج النحيـب

ويـــضجُّ جبـــار الأســـى، وتجـــيش أمـــواج الكـــروب

إنـــي أنـــا الـــروحُ الـــذي ســـيظل في الـــدنيا غريـــب

ويعـــيش مـــضطلعاً بـــأحزان الـــشبيبة والمـــشيب

ولا شك في أن هذه الغربة قد فرضت نفسها على شاعرنا فرضاً، وإلاّ فإن حبه لأبناء شعبه لم يكن يدانيه حب، ورغبته في النهوض بهم كانت أكيدة.

وإنما فرضها عليه ذلك الصدع الذي فصل بين رؤيتهم ورؤيته، وبين منهجهم ومنهجه، فصاروا لا يتجاوبون معه، ولا يدركون مراميه البعيدة، على حد تعبير الناقد د. عز الدين اسماعيل. وإذا كانت هذه الغربة مفروضة عليه كان من الطبيعي أن تورثه الشقاء:

((يا صميم الوجود كم أنا في الدنيا غريب أشقى بغربة نفسي

بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي

في وجود مكبلٍ بقيودِ تائهٍ في ظلام شكٍ ونحس))

والحق يقال ... فإن لأبي القاسم الشابي روائع شعرية كثيرة، وإنه لتصعب المفاضلة بين قصائده هذه، فجميعها يتسم بالجمال الفني الأنيق بكامل عناصره. ولم تزل قصائده الموجهة إلى الشعب ترانيم خالدة، وإن سكن جسده القبر:

إذا مـــا طمحـــتُ إلى غايـــةٍ

ركبـــتُ المنـــى ونـــسيتُ الحـــذَرْ

ولم أتجنـــبْ وعـــورَ الـــشعاب

ولا هبّـــةَ اللـــهب المـــستَعِرْ

ومَـــنْ يتهيّـــب صـــعودَ الجبـــال

يَعِـــش أبـــد الـــدهرِ بـــين الحُفَـــرْ

إن شعر الشابي هو شعر العبقرية والتفوق، فله هالة نورانية يصعب تعريفها، وسواء لدينا فجرُها أو شروقُها، لأنها على اختلاف منازلها تتألق بالجمال، وتنمُّ عن رسالة سامية، لو لم يقلها شعراً لتألقت في وجهه نوراً، على حد تعبير الأديب أحمد زكي أبو شادي.

هذا الشاعر الذي لم يبلغ العشرين، يُحس في باكورة عمره إحساس المصلح صاحب الرسالة. فيقول:

شـــعري نفاثـــةُ قلـــبي	إنْ جـــاش فيـــه شـــعوري
لـــولاهُ مـــا انجـــابَ عـــني	غـــيمُ الحيـــاةِ الخطـــيرِ
لا أنظـــمُ الـــشعرَ أرجـــو	بـــه رِضـــاءَ الأمـــيرِ
بمدحـــةٍ أو رثـــاء	تُهـــدى لـــربِ الـــسريرِ
حـــسبي إذا قلـــتُ شـــعراً	أن يرتـــضيه ضـــميري

إن كل قصيدة من قصائد الشابي، طالت أم قصرت، صورة مكبرة أو مصغرة لألق العبقرية والنبوغ، وهو قبل هذا وبعده، المؤمن بالحياة إيمانه بالجمال والحرية والساخط على طغاة العالم، والمصلي في هيكل الحب، والمناجي للطبيعة دون ملل، والمتفائل دائماً، وأخيراً المعانق للموت في غير وجل، عناق الفيلسوف الفنان، الذي ينشد التجربة والعلم حتى تجربة الموت:

سـأعيشُ رغـم الـداء والأعـداء

كالنـسر فـوقَ القمـةِ الـشماءِ

لقد خدم الشابي الأدب والعرب والإنسانية بحياته وموته على السواء، ودفع وحده الثمن غالياً لذلك. وتبعاً لذلك يجد الشابي نفسه معتنقاً رسالة أدبية سامية هي رسالة التجديد، وبعث روح جديدة في الجسم العربي الهامد. يقول الشابي:

((إنه لا يحزنني شيء في هذه الدنيا، أكثر مما يحزنني التفكير في أنني أموت قبل أن أؤدي رسالة الدنيا التي أحس أنني لم أخلق لغيرها في هذا العالم)).

إن شخصية الشابي هي شخصية المجاهد في سبيل مثل أعلى، لذلك وجدناه زاهداً بالمناصب الرفيعة التي يتكالب عليها أصحابها ليستشعروا شيئاً من العز والجاه. فالشابي، على حد تعبير الناقد "جان طنوس"، لا يتهالك إلاّ على الشعر والمنصب الكبير الذي يطمح إليه إن جاز التعبير، هو أن يؤدي رسالته في هذا العالم بكل صدق وإخلاص:

((كأنهم يحسون أن المناصب هي كل شيء في هذا العالم، وأن منصب القضاء هو سيدها، ولو علموا ما الذي يبغض إليَّ المناصب على اختلافها، ويبغض إليَّ المناصب الشرعية، بالأخص لعذروني)).

❖ عود على بدء

تزوج الشابي قبل أن ينهي دراسته العالية، وترك بعد رحيله طفلين، هما اليوم من خيرة الشخصيات التونسية....

ومن المؤسف أن أبا القاسم الشابي لم يكن موفقاً في حياته الزوجية. وأغلب الظن أنه تزوج إرضاءً لوالديه أو لأحدهما فقط. ومن المؤكد أن الشابي، على حد تعبير أبو القاسم محمد كرو، لم يجد في زوجته، تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في أشعاره ويتغنى بها في قصائده. لذلك لم يلبث أن وقع في شراك حب عنيف، قاده إلى دائرة الغرام ومحاريب الهوى حيث رتل (أناشيده في هيكله) وأحرق قلبه وعواطفه بخوراً عند أقدام الحبيب.

على أن بعض أصدقاء الفقيد ينكر هذا الحب، ويحاول تعليل ما قاله الشابي فيه من شعر ونثر، بأنه تمجيد لجنس المرأة وجمالها وفتنتها، لا افتتان وحب لامرأة بالذات. وفي هذا المعنى يقول صديقه الشاعر محمد الحليوي ما نصه:

((... وغاية ما يمكننا أن نعرف، هو أن الشاعر يتغنى بالمرأة، لا بامرأة، ويذكر الحبّ، لا حباً يميزه من أنواع الحبّ الكثيرة ووقائعه الخاصة....)).

وهنا يستشهد الأستاذ الحليوي بالقطعة التالية من كلام الشابي:

((كنا نسير نحو الغاب، وكانت غماغم الحقول تحدثنا عن الحب والحياة، وكانت تقنع السماء سحابة رقيقة ساجية، كأنها قناع حورية من بنات الأحلام، وكان الغاب يبدو في ضياء القمر كرؤيا نبي أو خيال شاعر.

وكان الحبّ يتهادى أمامنا ثملاً بين المروج الناعسة في سكون الليل، وعلى منكبيه درع قصير كضباب الصباح، جميل كغيوم الربيع. ولما اقتربنا من الغاب سمعنا طائراً يغني أنشودة القمر، وسمعنا قيثارة الحب تترنم في جواره، وسمعنا صوتك العذب الجميل، يتغنى بوحي الجمال، يا ابنة الليل ويا ربة الأحلام)).

ثم يواصل الأستاذ الحليوي حديثه فيقول:

((فليس إذن في حب الشابي تلك الحوادث والوقائع التي تتدرج بالحب، وتجعل له أولاً وآخراً، ومعالم كلمات تقال بين المحبين، وآلاماً تعقب الصد، وفرحات تجيء مع الوصال. فكأنه كان يصف فكرة لا امرأة، ويصور مثلاً أعلى لا شخصاً من لحم ودم، له ما يميزه عن الأشخاص الآخرين الذين يتغزل بهم شعراء الحب. وربما كانت حرارة شعره الغزلي ولهفته الصادقة متأتية من حرمانه من الاتصال بالمرأة التي توحي إلى الشاعر وتوجه عاطفته الوجهة الفنية)).

ويردّ الأديب أبو القاسم محمد كرّو على الأستاذ الحليوي بما معناه:

((أجزم بأن الشابي أحب فتاة معينة، وأنه شغف بهذا الحب إلى درجة العبادة والتقديس. ولا يستطيع أحد قرأ القصائد:

الساحرة	صلوات في هيكل الحب	أراك
تحت الغصون	الإيمان بالحياة	جدول الحب

أن يقول أنه كان يتغنى بالمرأة "كجنس أو كمثل أعلى" فنحن حين نستمع إلى الشاعر وهو يردد:

أراكِ فتحلـــــــو لـــــــدي الحيـــــاة

ويمـــــلأ نفـــــسي صـــباح الأمـــــل

وتنمـــــــو بـــــصدري ورود عـــــذاب

وتحنــــو علــــى قلـــبي المـــشتعل

فأعبــــد فيـــك جمـــال الـــسماء

ورقـــــة ورد الربيــــع الخـــــضل

وطهـــر الثلـــوج وســـحر المـــروج

موشـــــحة بـــــشعاع الطفـــــل

أو حين يقول:

كلمـــا أبـــصرتك عينـــاي تمـــشين

بخطـــــو موقــــع كالنـــــشيد

خفـــق القلـــب للحيـــاة ورف الزهـــر

في حقـــــل عمـــــري المجـــــرود

وانتـــشت روحـــي الكئيبـــة بالحـــب

وغنـــــت كالبلبـــــل الغريـــــد

حين نستمع إلى ذلك كله، لا يمكننا أن نشك لحظة في أن هذا الشعر إنما قيل في امرأة معينة، وإن كنا نجهل حقيقة هذه المرأة.

ومن المؤسف والمؤلم معاً، أن هذه الفتاة أو المرأة التي شغف بها الشاعر، قد ماتت قبل وفاته بست سنوات تقريباً، فأحدث موتها في حياة الشابي وفي أدبه انقلاباً بعيد الأثر متعدد الجوانب والصور. ويمكننا أن ندرك هذا من مصادر مختلفة، منها قصيدة (جدول الحب...) التي يقول فيها:

بالأمس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة

واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة

وباختصار... فإن الشابي أحب في حياته حباً حقيقياً صادقاً، وبأنه أغرم بفتاة معينة غراماً عنيفاً مشبوباً، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان المملوءة بالحرارة والوجد، إن هي إلاّ صدى صادق لذلك الحب، وتصوير رقيق لاحتراق الشاعر به، وتمجيده له، وعكوفه عليه.

وهو في شعره، يقدّس الحبّ، وكذلك يمجّد الطبيعة، شأن الرومانسيين. وأكثر شعره يدور حول المحاور الثلاثة: الحب، والمرأة، والطبيعة. مرَّ شعره في ثلاثة أطوار:

♦ **الطور الأول:** هو طور التشاؤم واليأس، حيث يقول في قصيدة (السآمة)"

ســـئمتُ الحيـــاةَ، ومـــا في الحيـــاة

ومـــا إن تجـــاوزتُ فجـــرَ الـــشبابْ

فحطمـــــــتُ كأســـــي، وألقيتُهـــــا

بـــــوادي الأســــى وجحـــــيم العـــــذاب

♦ **الطور الثاني:** هو طور التشاؤم المصحوب بالتساؤل والحيرة التي تسعى إلى اليقين:

مـــا للريـــاح تهـــبُّ في الـــدنيا، ويـــدركها اللُّغـــوب

إلاّ ريـــاحي، فهـــي جامحـــةٌ، تمردُهـــا عـــصيب؟

مـــالي تعـــذبني الحيـــاة كـــأنني خَلْـــقٌ غريـــب

وتهـــدُّ مـــن قلـــبي الجميـــل؟ فهـــل لقلـــبي مـــن ذنـــوب

♦ **الطور الثالث:** يرتفع من التشاؤم إلى درجات الصفاء الروحي، كما يتجلى ذلك في قصيدة (نشيد الجبار) وقصيدة (الصباح الجديد):

اســـكتي يـــا جـــراح   واســـكتي يـــا شـــجون

مـــاتَ عهـــد النـــواحْ   وزمـــــانُ الجنـــــون

وأطـــــل الـــــصباح   مـــــن وراء القـــــرون

إن الشابي ظاهرة شعرية حضارية أضخم وأكبر من أن نلتمس تفسيرها في ظروفه الشخصية والإقليمية، ولا بدّ لكي تبدو لنا في عملقتها وتكاملها أن نفسرها في إطار الكيان الثقافي للمغرب العربي، على حد تعبير الأديب الناقد خليفة محمد التليسي، وحركة الإبداع فيه، قديما وحديثاً، ضمن الحركة التاريخية للإبداع العربي الشامل.

إن شخصية الشابي تغنى وتعظم ويكبر دورها حين نضعها في هذا الإطار الذي يمكننا من تفسير هذه الظاهرة الفريدة.

أبو القاسم الشّابي

نماذج نثرية

الشعر

ماذا يجب أن يفهم منه؟
وما هو مقياسه الصحيح؟

كثيراً ما تحدث الناس عن الشعر وكثيراً ما رتلوه.

فالشاعر والفنان، والمؤرخ والفيلسوف، والراهب في ديره، والناسك في صومعته، والشاب في مدرسته، والغادة في خدرها، والراعي بين الغابات والجبال، والحصاد بين السنابل والأغمار، والبحّار يصارع الموج ويقاوم العاصفة في زورقه الصغير، كل هؤلاء يتحدثون عن الشعر أحاديثَ كثيرة متباينة، ويصفونه بأوصاف غريبة، ويتكلمون عنه بلغة يقرب بها كل بين ما في نفسه وبين حقيقة الشعر، وكل هؤلاء يرتلونه في أوقات الوحدة والانفراد، ويتغنون به حينما يخلو كل

واحد إلى نفسه ويصغي إلى أحاديث قلبه الكثيرة، ولكنك لو سألت كل واحد من هؤلاء عن "الشعر" وعما يفهم من هذه الكلمات الصغيرة، لتبلبلت ألسنة، واختلجت شفاه، ولرأيت بسمات حائرة، وأخرى ساخرة، وأخرى ساذجة طافحة بمسرات الحياة...

الشعر! وهل يسأل عن الشعر؟

إن الشعر هو الحياة نفسها... في حسنها ودمامتها، في صمتها وضجتها، وفي هدوئها وثورتها، في نومها ويقظتها، وفي كل صورة من صورها ولون من ألوانها.

الشعر! وهل يسأل عن الشعر؟

إن الشعر يا صاحبي، هو ما تسمعه وتبصره في ضجة الريح وهدير البحار، وفي بسمة الوردة الحائرة يدمدم فوقها النحل ويرفرف حواليها الفراش، وفي النغمة المغردة يرسلها الطائر في الفضاء الفسيح، وفي وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول، وفي دمدمة النهر الهادر المتدفق نحو البحار وفي مطلع الشمس

وخفوق النجوم، وفي كل ما تراه وتسمعه، وتكرهه وتحبه، وتألفه وتخشاه. فهل بعد ذلك تسألني عن الشعر؟

هكذا يجيبك الشاعر وهكذا يتحدث إليك الفنان. ويقول لك المؤرخ: إنما الشعر يا هذا ما مثل عوائد الشعب وأخلاقه، وعقائده وأوهامه، وفضائله ورذائله؛ وأعطاك من كل ذلك صورة صادقة ناصعة للحق والتاريخ. ويجيبك قائلاً: هل الشعر يا صاحبي إلا ما أوقفك في هيكل الوجود، وعلمك الحكمة وأسمعك أغاني الحياة وصلواتها. ويقول لك الراهب: هو الشعر يا بني، كل ما تغنى بمجد الله في السموات والأرض، واقتلع الكفر والزيغ من فؤاد الإنسان. ويقول لك الزاهد: الشعر يا ابن أخي، هو ما حبب إلى النفس القناعة والزهد وأبعدها عن ضجة العالم، لتصغي إلى الله متكلّماً. ويقول لك الشاب: هو ما يتغنى به قلبي حينما يسكره رحيق الحياة.

وتقول لك العذراء: هو ما أسمعه من شفاه الشاب الجميل حينما يجالسني فأنسى العالم في جواره. ويقول لك الراعي: هو أغنيتي الجميلة في الصباح حينما أسوق المواشي بين المزارع، وأطارد الطير فوق الجبال، وألحان شبابتي في المساء، حينما أرجع إلى الحي وفي قلبي غبطة القناعة، وفي عيني وميض السرور. ويجيبك الحصاد قائلاً: هو تلك الأغاني البهيجة التي ترتلها جموع الشبان، وأسراب الصبايا حينما يجتمعون بين الحقول لحصاد السنابل الشقراء وجمع الأغمار الناضجة. ويقول لك البحار: هو تلك الأنشودة الساحرة التي أتلوها وأنا بين أهوال البحر وزئير الأمواج، فتنسيني مخاوف اليم وتبعث في ساعدي قوة الجبار وفي قلبي عزم الشباب.

هكذا يجيبك هؤلاء عن الشعر. وكل واحد منهم إنما أعطاك صورة من نفسه ورسم لك أحلام قلبه في هاته الكلمة الصغيرة الكبيرة.

أما أنا فلا أريد أن أبلبلك فأقولَ لك: إن الشعر هو كل ما قال هؤلاء ــ وإن كان ذلك حقاً ــ ثم أمضي صامتاً. لأنني أعتقد أنك ستظل مبلبل النفس مضطرب المشاعر، تسائل نفسك من حين لآخر ما هو الشعر؟ بل إنني سآخذ بيمينك وأمضي بك في طريق معبدة واضحة، لا التواء فيها ولا أشواك. وسأحدثك عن الشعر، حديثاً هادئاً لا عنف فيه ولا قوة، كأحاديث الأصدقاء في ليالي الصيف المقمرة. وسأحاول أن أجعله بسيطاً واضحاً سهلاً، يرسم لك صورة مجردة عن الشعر، ويعطيك مقياساً صحيحاً أو قريباً من الصحة ــ على الأقل ــ لتفهمه وللحكم عليه. ولكنني سأوجز ما استطعت في تحدثي عن الشعر لأنني وقد استوقفتك لتسمعني مكلماً عنه، لا أريد أن آخذ عليك وقتك.

الشعر يا صديقي "تصوير وتعبير" تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك: مغنية، ضاحكة، لاهية. أو مقطبة، واجمة باكية. أو وادعة حالمة، راضية، أو مجدفة، ثائرة، ساخطة. أو تصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك، وتقلبات أفكارك، وخلجات نفسك، ورفرفة أحلامك وعواطفك.

وتعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل، ملؤه القوة والحياة، يقرأه الناس فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم ودم وقلب وشعور لأنهم يحسون أنه قطعة من روح الشاعر، وعبق من عواطفه، أو فلذة حية من فؤاد الحياة. هو هذا الأسلوب الذي يكون عنيفاً كالعاصفة حينما يمثل سخط الحياة أو ثوران العواطف، ويكون وادعاً كضوء القمر، حينما يمثل طمأنينة الحياة وسكون النفس، ويكون رقيقاً شجياً كأنات ناي بعيد، حينما يمثل أحلام الحياة ونجوى القلوب المتحابة، ويكون كئيباً مظلماً كقلب الظلام، حينما يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر.

فالتصوير الصادق الذي يريك تصورات الشاعر أرقى من تصورات البشر. والتعبير الفني الجميل الذي يكون قالباً إنسانياً حياً لذلك المعنى الذي يشمله، ذلك هو الذي ينبغي لك أن تبحث عنه، كلما قرأت قصيداً أو رتلت مقطوعاً، أو تصفحت ديواناً. فإن وجدته فكن على يقين أنك إنما تقرأ شعر الحياة، وإن أنت أخطأته، فاعلم أنك تقرأ شعراً زائفاً لا قيمة له في سوق الخلود.

ولا يهمك بعد أن تجد "التصوير الصادق" و"التعبير الصحيح" أكان ذلك الشعر غنائياً يتغنى بخوالج النفس وعواطف الإنسان، أم كان قصصياً يقص عليك فصول الحياة كما هي أو يرسم لك مثلها العليا كما توحيها إليه أحلامه. أم كان تمثيلياً يمثل لك كثيراً من حقائق النفس وصور الحياة، ومشاهد هذا الوجود. وإنما الذي يهمك بعد أن استوثقت أن الذي بين يديك نتاج قريحة خصبة منتجة، وخيال حي صحيح، هو أن تعرف هل أنك تقرأ مثلاً أعلى من الشعر الإنساني الذي يكاد يسمو إلى درجة الإلهام، أو أنك تقرأ دون ذلك!.. ولكي تدرك

هاته الحقيقة فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك، ويجعلها تحس بتيارات الوجود أكثر مما كانت تحس، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك، وينسيك وجودك الإنساني لحظة، لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك. أقول انظر فإن كان من هذا النوع فاعلم أنك تقرأ شعراً إلهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً، وإلا فاعلم أنك تقرأ مثلاً دون ذلك.

ذلك هو الشعر في نظري يا صديقي، وهذا هو المقياس الذي أعرف به الشعر من غيره، وأدرك به المثل الأعلى مما عداه. ولكنني قبل أن أفارقك، أقول لك: إن هذا المقياس من شأنه أن يقضي عليك ـ إن اتبعته ـ أن تلقي بكثير من أصنام الشعر ودواوين الشعراء إلى النار أو إلى سلة المهملات. فإن كنت رقيق القلب جم العواطف فإنني أنصح لك في إخلاص أن لا تأخذ هذا المقياس يا صاحبي، وأن تقنع بمقياسك إن كان لك مقياس تقدر به قيم الشعر في عالم الأدب. وإن كنت من الإخلاص للأدب والفن بحيث لا

يحزنك مشهد الأصنام البشرية تحترق في جحيم الحياة، ولا يحرك نفسك أو يهز مشاعرك رؤية الأسفار الكثيرة تندثر في ظلام الإهمال وتنبعث منها رائحة الموت. فلتأخذ هذا المقياس ولتكن مخلصاً في استعماله، وأنا الكفيل بأنك تكون قد حزت مقياساً دقيقاً تعرف به كيف تفرق بين شعر الحياة الخالد، وبين شعر السخافات والتقليد.

يقظة الإحساس

وأثرها في الفرد والجماعة

تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهيّ نبيل يسمو بنفسك إلى آفاق الحق والفن والجمال ويجعل منك كتلة من شعور قدسي مشبوب. وتسمع إلى آخر فترى أنك تسمع إلى حديث ساذج بسيط لا يميزه عن أحاديث الناس العادية إلا رنة النغم وتواتر القوافي وجمال التعبير وتسمع إلى غيره فتخال أنك تجلد بالسياط أو تساق إلى الموت على وجهك.

وتصغي لهذا المنشد أو الموسيقار فيستفز نفسك ويثير وجدانك ويهز عواطف قلبك ويذكي خيالك إلى أقصى مداه حتى تكاد تستحيل شعلة متوهجة من خيال وذكريات وأحلام. وتصغي لسواه فلا تشعر وأنت

تصغي إليه إلا بحلاوة في الصوت وجمال في المقاطع ورقة في النشيد وشيء من المتعة يخفف عن النفس أعباء العيش وشقاءه، وتصغي لغير هذين فيكاد التثاؤب ينيمك والضجر يقضي عليك. وترى صورة لهذا الرسام أو تمثالاً لذلك النحات فتشعر بلذة روحية سامية تعرج بك إلى سماء الإلهام ومعارج الوحي البعيدة وترى لغير هذين فلا تحس في نفسك بغير الإعجاب البسيط الفاتر. وترى الآخرين فتظل نفسك هادئة ساكنة كأنك ما رأيت شيئاً أو تشمئز وتنفر وتفر بذوقك فراراً.

وهذا شعب من شعوب الأرض، يجد ويكدح وينتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها، فإذا له حياته الأدبية الناضجة وحياته العلمية الراقية وحياته العادية المهذبة ومشاعره الطامحة إلى ما هو أجلّ من ذلك وأسمى، إلى المثل الأعلى المحجب في ظلام المجهول. وهذا شعب آخر، منصرف إلى التبطل والفراغ، مخلد إلى الكسل والخمول لا يعمل، ولا ينتج ولا يجود على الإنسانية بخير. ليس له فن ولا علم، ولا أدب ولا طموح، بل ولا حياة ... أيضاً. إلا كما تحيا ماشية الحقل وآبدة الجبل..

فما هو السر يا ترى في هذا التفاوت الواضح بين هؤلاء؟

ستقول: الحرية. فكلما كان الفنان حراً في فنه، كلما اكتشف آفاقاً جديدة من السحر والجمال. وبذلك يسمو على غيره ممن لا يعطي لفنه حرية الحياة.

وهذا حسن. لولا أنه إن صح صرفه إلى الفنان فإنه لا يصح صرفه إلى الشعوب لأن كثيراً ما تجد الشعب حياً منتجاً تزخر في عروقه دماء الحياة وعزمها، ومع ذلك لا يملك من الحرية ما يتكافأ مع حيويته ونتاجه. وهو فوق ذلك تعليل للشيء بغير علته. وعندي أن السبب الحقيقي لهذا التفاوت هو: "يقظة الإحساس" لا الحرية. لأن حرية الفنان في فنه، إنما هي من آثار هاته اليقظة الروحية وثمرة من ثمارها. فإذا تيقظ الإحساس في قلب الشاعر والفنان ـ بتعبير أشمل ـ كان له ـ بالرغم عنه ـ استقلاله الذاتي الذي يشعره بأنه قوة حية منتجة، من المستحيل أن تندمج في سواها، وأن لا تشق لنفسها سبيلاً بكراً للمجد والحياة. وكانت له كرامة ترفع عن أن

تـذوب في غيرهـا أو تـنحط إلى درك التقليـد. وبـذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج في قلب الحياة. وطائراً سماوياً يتغنى بأفكار وأحلام البشر. وإذا تيقظ الإحساس في روح الشعب تحركت في صدره ـ رغم كل شيء ـ تلك الأشواق الطامحة والرغبات الجامحة التي كانت مكبلة نائحة في ليل الدهور. وإذا ذاك يشعر بنفسه ـ وإذا قلنا "يشعر بنفسه" فقد قلنا كل شيء ـ ويعلم أنه عضو في هالة الجامعة البشرية. عليه واجب السعي والعمل في سبيل كمال الإنسانية المنشود، في سبيل مثل الحياة العليا، في سبيل الحق والقوة والجمال.

وإذا أردنا أن نستشهد التاريخ والواقع على ما نقول فهذا "المتنبي" الشاعر العربي وهذا "بيتهوفن" الموسيقار الألماني. وهذا "واطس" الرسام الرمزي الانكليزي. وهذا "ميكلانجلو" المثال الإيطالي. فكل من هؤلاء العظماء الأربعة قد كان له معاصروه ومعارضوه والضاربون معه في سبيل واحد. ولكنهم انفردوا دون معاصريهم بالعبقرية الخارقة والمجد والخلود. فما هو

هـذا الـسبب الأعظـم الـذي جعـل الإنـسانية تمجـد هـؤلاء تمجيـداً لا تمـنح معـشاره لمـن عاصـرهم مـن الفنـانين والشعراء؟

إنه يقظة في أرواح هؤلاء عـدمها معاصروهم. يقظـة روحيـة عميقـة سـامية هـي الـتي كانـت تملـؤهم شـعوراً بأنفـسهم وبالحيـاة. ومـن شـعر بنفـسه حـق الـشعور احترمهـا وسما بهـا عـن مـواطن الـضعة والحقـارة. ومـن شعر بالحياة حق الشعور لم يستطع أن يكون بوقـاً يـردد صدى غيره ولا بركة آسنة تعكس صفحتها ظلاله... بـل كـان بحـراً رحيبـاً داويـاً يدمـدم بمـا في أعماقـه مـن قـوة وعزم وأهوال يقظة روحية عميقة. وتلك هي التي كانـت تعلـم "المتـنبي" مـن سـنن الحيـاة وغرائزهـا وقواعـد الاجتمـاع ونواميـسه مـا لا يعلمـه سـواه. وتنطقـه بـذلك الأسـلوب الحـي المتماسـك الأجـزاء الممتلـئ قـوة وجمـالاً. وهي التي كانت تخلق حول روح "بيتهـوفن" جواً شـعرياً من الأنغام السماوية الخالدة، وتفيض على موسـيقاه مـا في هاتـه الحيـاة العاصـفة وقلـب الإنـسان مـن أفـراح راقــصة في ضــياء القمــر، وآلام متفجعــة في ديجــور

الأسى، وأحلام تغني للفجر أناشيد الضياء. وأشواق تلتهب بنار الوجد والحنين. وهي التي كانت تجسد لـ "واطسن" معاني الحياة والحب والموت، وتريه من الاحلام والعواطف والأفكار صوراً سحرية رائعة لم تخطر على قلب بشر. وهي التي كانت تنبه "ميكلانجلو" إلى ما في تماثيل عصره من مرض وخور وجمال شاحب مهزول، كاد ينقلب دمامة شوهاء في نظر الشعور الدافق القويم. وتهيب به أن ينهض بهذا الفن المحتضر وينفخ فيه روحاً جديدة ليمثل جمال القوة المهيب.

وهذه الأمة العربية. كانت بالأمس رائد العالم ورسول المدنية والنور حين كانت روحها مستيقظة ناهضة، وإحساسها مضطرماً مشبوباً. ثم أمست في آخر القافلة الإنسانية نائمة تلوك أحلام الماضي لما تبلد إحساسها وفقدت شعورها بنفسها وبالحياة. ثم ها هي اليوم تحاول النهوض واليقظة ثانية لأن روحها قد أخذت تستيقظ من جديد.

ثـم إن هنـاك ظـاهرة قـد تكـون لأول وهلـة غريبـة ومثـاراً للحـيرة والتـساؤل وهـي أن الآداب والفنـون، كـثيراً مـا تزدهـر في عـصور الثـورات والانقلابـات وبـين الجماجم المنثورة والـدماء الجاريـة. بـل وربمـا كانـت أحيانـاً أبهى منظراً وأعبق شذى وأنطق بمعـاني الحيـاة مـن آداب الراحة والأمن والسلام وفنونها. أما أنـا فـلا أراهـا غريبـة ولا مدهـشة، بـل أراهـا نتيجـة منطقيـة ومعقولـة لنفـسية الأمة الجائشة، لأن الثورات لا تحـدث إلا والنفـوس أكثـر إحساساً بالحياة وملل من الحاضر، وشوق إلى المستقبل، وطمـوح إلى المجهـول... وتلـك هـي يقظـة الإحـساس بمعناها الشامل العميق.

وإن شعباً يكون مستيقظ المشاعر متسع جوانب الحياة، لجدير بأن يستخرج خير ما في الطبيعة من فن وحق. وإن فناً يكون مصدره ذلك العطش الروحي الذي يلهب النفوس، وتلك العواطف الثائرة التي تعصف في قلب الشعب، وبعبارة أخرى، إن فناً يكون مصدره تلك اليقظة الروحية العميقة التي سميناها "يقظة الإحساس" لهو الفن الحي في صميمه، الفن الذي لا ينصرف إلى القشور ولا يقنع بما دون اللباب.

ومن هنا تفهم معي أن يقظة الإحساس هي روح الحياة المنتجة الولود التي تصقل العبقرية وتؤجج نيران النبوغ.

صفحات دامية

... تلك حياة بعيدة ... تجلت كالفجر، وتوارت كالحلم، واضمحلت في ظلام القبور.

تلك حياة جميلة ... قد تهادت غيمة وردية في سماء الوجود، وتدفقت نهراً مترنماً بأحلام البحار، ثم سارت جدولاً صامتاً في أودية الموت ...

تلك حياة شعرية ساحرة ... قد حاكها الأمس من آصال الفردوس وأسحاره، ووشتها أنامل الدهر بأزهار الربيع ...

تلك حياة قصية نائية ... قد تألقت كالنجوم، وتبخرت كالغيوم، واضمحلت كأنفاس الزهور ...

تلك حياة فتية حالمة ... ما استحمت في لجة الليالي والأيام، ونشرت غدائرها الذهبية فوق المياه ... حتى تخطفتها المنايا وسارت بها إلى مأواها البعيد ... وهناك، في ظلمات الأبد الغامض الرهيب، تتألم تلك الحياة الشقية، وتبكي وحدها بين الصخور ...

* * * *

... كنا نسير نحو الغاب، وكانت غماغم الحقول تحدثنا عن الحب والحياة، وكانت تقنع السماء سحابة رقيقة ساجية، كأنها قناع حورية من بنات الأحلام ... أو رداء ملك من ملائكة الفردوس ... وكان الغاب يبدو في ضياء القمر كرؤيا نبي أو خيال شاعر ... وكان الحب يتهادى أمامنا، ثملاً بين المروج الناعسة في سكون الليل، وعلى منكبيه درع قصير كضباب الصباح،

جميل كفيوم الربيع ... ومن حوله بنات الربيع يتناغين بصوت أعذب من أغاني السواقي بين الحقول ...

ولما اقتربنا من الغاب سمعنا طائراً يغني أنشودة القمر ... وسمعنا قيثارة الحب تترنم في جواره ... وسمعنا صوتك العذب الجميل يتغنى بوحي الجمال، يا ابنة الليل، ويا ربة الأحلام.

ولما جلسنا في ظلال الزيتون، وبين أشجار اللوز المزهرة، كان الطائر قد سكت، وكانت قيثارة الحب تتأوه في يديك، يا ابنة الليل ويا ربة الأحلام، وكانت أناشيد الغرام تتنزل علينا من مكان بعيد ...

ولبثنا نصغي لأنشودة الحب، حتى توسط البدر قبة السماء؛ واختلجت كواكب الليل، وإذ ذاك شعرت بالحب يستجيش في قلبي، وبالحياة تتدفق من شفتي.

* * * *

تلك كانت حياتي بالأمس، حينما كانت نفسي بخوراً يتضوع في معبد الحب، ورحيقاً يهرق تحت أقدام الجمال، وأنشودة إلاهية، تتغنى في هيكل هذا الوجود...

تلك كانت حياتي بالأمس، حينما تمايلت في قلبي رؤى الحب الجميل كما تتمايل غلائل الحور في ضياء القمر، واصطفقت في صدري أحلام الشباب الأولى، كما تصطفق أمواج البحيرة الموردة بأشعة الشفق الجميل...

تلك كانت حياتي بالأمس، حينما كان هذا القلب الخفوق يتضوع بعبق الحياة، ويتوهج بنار الخلود، ويزخر بشتى العواطف الأحلام ... وحينما كانت نفسي تركع في محاريب الغاب الجميل، مرتلة صلاة الحب وأغاني الفصول...

تلك كانت حياتي بالأمس، وما شيده الأمس في ضباب الفجر المرصع بالنجوم ... قد هدمته الأهوال في أحشاء الكهوف العابسة، وأفنت بقاياه غيلان الظلام ...

تلك كانت حياتي بالأمس، أما اليوم، فقد انكسرت بين ثلوج الموت تلك الزهرة السماوية الطاهرة، التي كانت تحبب لي البقاء في هذا العالم، وبقيت وحدي بين الصخور، أشبب بالموت وأتغزل بأهواء القبور ...

أغنية الألم

ما أمرَّك أيها الألم وما أعذبك!

أيتها المرارة، التي أترعت أودية الحياة بأمواج الدموع، وملأت آفاق الوجود بأنات النفوس الدامية!

أيتها اليد الرهيبة الهائلة، التي حطمت على شفاه القلوب كؤوس الأحلام، وأراقت رحيق النفوس بكهف الظلام.

أيها الهول الذي ترهبنا ملامحه وتخيفنا ذكرياته.

أيها الألم الرائع الذي نحبه ونخشاه ...

إنك أنت الشعاع الأزلي الجميل، الذي وشح ظلمة نفسي بالشفق، ورصعها بالنجوم، وتوجها بأضواء الصباح..!

وأنت، أنت الصوت الإلهي النبيل، الذي أوحى إلينا أناشيد السماء، وعلمنا كيف نغني للبشرية أغاني الجمال...

وأنت، أنت المنبع السحري الغريب، الذي ينمق سبل الإنسانية المضرجة بالدماء، بأوراد الحياة وأزهارها.

أيها الألم الإلهي النبيل، الذي نحبه ونخشاه. ترى أية شفت ترشفت رضاب الحياة، ولم يطهرها لهيب الحياة؟! وأية زهرة تلقَّت قُبَلَ الربيع ولم يروع الشتاء أحلامها؟! وأية نفس بشرية عانق الفجر روحها بجناحيه، ولم تراقصها أهوال الظلام، ولا عذبتها أبالسة الجحيم؟!

لنبحث أيتها الحياة، على قدمي ذلك الجبار الجميل، المحدق بما وراء هذا الوجود.

ولنسجد أيتها الليالي والأيام، إلى تلك الأجنحة النارية المشبوبة بأوجاع القلوب، والتي تسمو بالنفس البشرية إلى أقصى آفاق الخلود، وتنحدر بها إلى ظلمات الحياة. أيان تضطرب عواطف الوجود الغامضة، وترتعش شكوك البشر، وتتمايل أحزان الدهور. أيان تلقى (المعري) لزومياته، وتغنى (الخيام) برباعياته، ويرتل الخالدون إنجيل الحياة..!!

ولتتغن يا قلبي بأنشودة الأحزان المرة إلى الأبد ..!

لتركع أيها الوجود بخشوع أمام تلك القوة الإلهية، التي تصوغ من دماء النفوس وأناتها أقدس ما في هذا العالم ، وأبدع ما في مشاعر الأيام، وتنشئ من ظلمات القلوب صباحاً ساحراً سرمدياً، لا تكدره الرياح..!

ولنقدس أيتها الليالي والأيام، تلك الأشعة الوردية الصافية، تنبت حول جداول الأحلام الدامية، هاتيك الزهور النارية المقدسة، التي نستنشئ عبيرها من لوعة (المجنون) وأغانيه. ولتترنم يا قلبي بأغنية الآلام المرة حتى الأبد .!

لنصلِّ أيتها الكائنات بخضوع أمام ذلك الضباب السحري، الذي يستر بنقابه عرائس الشعر وعذارى الأحلام ..!

ولنتغن أيتها الليالي والأيام، بمجد تلك الشعلة الخالدة، التي أنارت للبشرية سبيل الحياة الغامضة، وهدتها إلى شجرة المعرفة، التي لا تنبت إلا على ضفة نهر الدموع والأحزان. ولترتل يا قلبي في سكون، أغاني الأوجاع المرة حتى الأبد..!

ولتمجد يأيها الغاب المنتحب، ويأيها الوادي الكئيب، ويأيها الكهف الأخرس، ويأيتها الحيرة الواجمة، ويأيتها الحياة المغمورة بالدماء، ويأيتها الإنسانية التائهة، المتوجة بالأشواك، الريانة بالدموع، السائرة على بساط لهيب الأوجاع، لنقدس كلنا ذلك الألم، الذي يجعل من الشاعر قيثارة غريبة غامضة، منطرحة في ملتقى رياح الوجود، صداحة بأغاني الحب والجمال..!!

لترتل يا قلبي الكئيب البائس، أنشودة الآلام المرة بالدموع، ولترددها على مسمع الظلام حتى الأبد..!!

أبو القاسم الشابّي

مختارات شعرية

شعري

شــــعري نفاثـــــة قلــــبي		إن جـــاش فيـــه شـــعوري

لـــولاه مـــا انجـــاب عـــني		غـــيم الحيـــاة الخطـــير

ولا وجــــــدت اكتئـــــابي		ولا وجـــــــدت ســــــروري

بـــــه ترانــــــي حزينـــــاً		أبكــــي بــــدمع غزيـــــر

بـــــه ترانــــــي فروحـــــاً		أجـــــرُّ ذيــــل حبــــوري

لا أنظــــم الــــشعر أرجــــو		بـــــه رضـــــاء الأمـــــير!

بمدحــــــــة أو رثــــــــاء		تهـــدى لـــرب الـــسرير!

حــــسبي إذا قلـــت شـــعراً		إن يرتــــضيه ضـــميري!!

مـــا الـــشعر إلا فـــضاء يـــرف فيـــه مقـــالي

فيمـــا يـــسر بـــلادي ومـــا يـــسر المعـــالي!!

ومـــا يـــثير شـــعوري مـــن خافقـــات خيـــالي

لا أقـــرض الـــشعر أبغـــي بـــه اقتنـــاص نـــوال

الـــشعر إن لم يكـــن في جمالـــه ذا جـــلال

فإنمـــا هـــو طيـــف يـــسعى بـــوادي الـــضلال

يقـــضي الحيـــاة طريـــداً في ذلـــة، واعتـــزال

تونس الجميلة

لــست أبكــي لعــسف ليــل طويــل   أو لربـــع غـــدا العفـــاء مراحـــه

إنمـــا عبرتـــي لخطـــب ثقيـــل   قــد عرانــا، ولم نجـد مــن أزاحــه

كلمـــا قـــام في الـــبلاد خطيـــب   مـــوقظ شـــعبه، يريـــد صـــلاحه

أخمـــدوا صـــوته الإلهـــي بالعـــسـ   ـــف، أمـــاتوا صـــداحه ونواحـــه

ألبـــسوا روحـــه قمـــيص اضـــطهاد   فاتـــك، شـــائك، يـــرد جماحـــه

وتوخـــوا طرائـــق العـــسف والار   هـــاق معـــه، ومـــا توخـــوا الـــسماحه

هكـــذا المـــصلحون في كـــل صـــوب   رشـــقات الـــردى إلـــيهم متاحـــه

غـــير انـــا تناوبتنـــا الرزايـــا   واســـتبيح الحمـــى وأي اســـتباحه

أنـــا يـــا تـــونس الجميلـــة، في لج الهـــوى قـــد ســـبحت أي ســـباحة

شـــرعتي حبـــك العميـــق، وإنـــي قـــد تـــذوقت مـــره وقراحـــه!

لا أبـــالي .... وإن أريقـــت دمـــائي فـــدماء العـــشاق دومـــاً مباحـــه!!

إن ذا عـــصر ظلمـــة غـــير أنـــي مـــن وراء الظـــلام شمـــت صـــباحه

ضـــيع الـــدهر مجـــد شـــعبي ولكـــن ســـترد الحيـــاة يومـــاً وشـــاحه..!

زئير العاصفة

أرى المجـــد معـــصوب الجـــبين مجـــدلاً

علــــى حـــسك الآلام يغمــــرهُ الـــدمُ

وقـــد كـــان وضـــاح الأســـارير باسمـــاً

يخـــــف إلى الجلـــــى ولا يتـــــبرم

ألا أيهـــا الظلـــم المـــصعَّر خـــده

رويـــد ك إن الـــدهر يـــبني ويهـــدم!

أغـــرك أن الـــشعب مغـــض علـــى قـــذى

لـــك الويـــل مـــن يـــوم بـــه الـــشر قـــشعم!

ســـيثأر للعـــز المحطـــم تاجُـــهُ

رجـــالٌ، إذا جـــاش الـــردى فهـــم هـــم!

رجـــال يـــرون الـــذل عـــاراً وســـبة

ولا يرهبـــون المـــوت والمـــوت مقـــدم!

وهـــــل تعتلــــــي إلا نفـــــوس أبيـــــة

تـــــصدع أغـــــلال الهـــــوان وتفـــــصم!

إلا إِن أحـــــــلام الـــــــبلاد دفينـــــــة

تجمجـــــم في أعماقهـــــا مـــــا تجمجـــــم

ولكـــــن ســــــيأتي بعـــــد لأي نـــــشورها

وينبثـــــق اليـــــوم الـــــذي يـــــترنم!

هـــو الحـــق يبقـــى راكـــداً، فـــإذا طغـــى

بأعماقـــه الـــسخط العـــصوف يدمـــدم!

ويـــنحط، كالـــصخر الأصـــم إذا هـــوى

علـــى هـــام أصـــنام العتـــو، فـــيحطم!

إذا صُـــــعق الجبـــــار تحـــــت قيـــــوده

ســــــيعلم أوجـــــاع الحيـــــاة ويفهـــــم!!

الحرب

هــــل الحـــــروب ســـــوى وحــــشية نهــــضت

في أنفـــس النـــاس فانقـــادت لهـــا الـــدول

فأيقظـــــت في قلــــوب النــــاس عاصـــــفة

فاســـودت الـــشمس وأربـــدت لهـــا الـــسبل

فالــــــدهر منتعــــــل بالنـــــار، ملتحـــــف

مــــــن المــــــآثم والأيــــــام تــــــشتعل!

والأرض داميــــــة، والكــــــأس حاميــــــة

والــــشر ــــ يخفــــق في آفاقهــــا ــــ ثمــــل!!

والمــــوت يــــسبح في مــــوج الــــضجيج فــــلا

يبقــى، ويخطــف مــن قــد خانــه الأجــل

وفي الهامـِــــــهِ أشـــــــلاء ممزقـــــــة

تتلــو علــى القفــر شــعراً لــيس ينتحــل

تـــــثير في الــــنفس أحزانــــاً يــــرن لهــــا

فــــم الفــــؤاد بتغريـــــد، فتنهمـــــل

الزنبقة الذَّابلَة

أزنبقـــــة الــــــسفح! مـــــالي أراكِ

تـــــساورك اللوعــــــة القاســــية؟

أفي قلبـــك الغـــض صــوت اللـــهيب

يرتـــــل أنــــشودة .... الهاويـــــة؟

أأسمعـــــك الليــــلُ نـــدبَ القلـــوب

وأرشــــفك الفجـــرُ كـــأسَ الأســــى

أصـــــب عليـــــك شـــعاعُ الغــــروب

نجيــــعَ الحيـــاة؛ ودمـــــع المـــسآ؟

أأوقفـــك الـــدهر حيـــث يفجـــر...

نـــوح الحيـــاة صـــدوع الـــصدور

وينبثـــق الليـــل طيفـــاً كئيبـــاً

رهيبـــاً ويخفـــق حـــزن الـــدهور!!؟

إذا أضـــجرتك أغـــاني الظـــلام

فقـــد عـــذبتني أغـــاني الوجـــوم!!

وإن هجرتـــك بنـــات الغيـــوم

فقـــد لـــزمتني فتـــاة الجحـــيم!!

وإن ســـكب الـــدهر في مـــسمعيك

نحيـــب الـــدجى، وأنـــينَ الأمـــل!!:

فقـــد أجـــج الـــدهر في مهجـــتي

شـــواظاً مـــن الحـــزن المـــشتعل

وإن قبلتـــك شـــفاه الحيـــاة

وصـــبت بفيـــك الرضـــاب المريـــر

فقـــد صـــفعت مهجـــتي الداميـــة

بنعـــل الـــشتاء أكـــفُّ الـــدهور

أصــــيخي، فمــــا بـــين أعـــشار قلـــبي

يــــرف صـــــدى نوحـــــك الخافـــــت

معيـــــداً علــــى مهجـــــتي بخفــــق

جناحيــــه همــــس الــــردى الــــصامت

فقـــد أتــــرع الليـــلُ بالحـــب كأســـي

وشعــــــشعه بلــــــهيب الحيــــــاة

وجــــــرعني مـــــــن ثمالاتــــــه

مــــرارة شــــجو تفـــت الـــصفاة

إلـــــيّ فقـــــد وحــــــدت بيننـــــا

قـــساوة هـــــذا الزمــــان الظلــــوم

فقــــد فجـــرت فيَّ هــــذي الكلـــوم

كمـــا فجـــرت فيـــك تلــك الكلـــوم

الدموع

ينقضي العيش بين شوق ويأس

والمنى بين لوعة وتأسي

هكذا سنة الحياة، ونفسي

لا تروم الرحيق في كأس رجس

ملئ الدهر بالخداع، فكم قد

ضل الناس من إِمام وقس!

كلما أسأل الحياة عن الحـ

ـق، تكف الحياة عن كل همس

لم أجد في الحياة نغماً بديعاً

يستبيني سوى سكينة نفسي

فسئمت الحياة، إلا غراراً

تتلاشى به أناشيد يأسي

حجبــــت شـــقوة الـــدهور علـــى جفـــ

ـــني شـــعاع الرجـــاء مـــن قبـــل رمـــسي

نـــــاولتني الحيـــــاة كأســــاً دهاقـــــاً

بالأمـــــاني، فمـــــا تناولـــــت كأســــي

وســــــقتني مـــــن التعاســــــة أكـــــوا

بـــاً تجرعتهـــــا، فيـــــا شــــد تعـــسي!

إن في روضـــــــة الحيـــــــاة لأشــــــوا

كـــــاً، بهــــا مزقـــــت زنـــــابق نفـــــسي

ضـــاع أمـــسي! وأيـــن مـــني أمـــسي!

وقـــضى الـــدهر أن أعـــيش بيأســـي!

وقـــضى القلـــب في ســـكون مريـــع

ســـاعة المـــوت، بـــين ســـخط وبـــؤس

لم تُبـــق لــــيَ الحيـــاة مـــــن الأمـــــ

ـــــس ســـوى لوعــــة تهـــب وترســـــي!

تتهـــادى مــــا بــــين غـــصات قلـــبي

بـــــسكون، وبــــين أوجـــاع نفـــــسي

كخيـــال مــــن عـــالم المـــوت ينـــسا

ب بـــصمت، مــــا بــــين رمــــس ورمـــس

تلـــــك أوجـــاع مهجـــــة عـــــذبتها

في جحـــيم الحيـــاة أطيـــاف نحـــس

تلـــــك أحـــــلام غـــــور روح كئيـــب

كـــره العـــيش: مـــن نعـــيم وبـــؤس

أغنية الأحزان

حطمـــــت كــــف الأســـى قيثـــارتي

في يــــد الأحـــــلام

فقـــــضت صـــــمتاً أناشـــيد الغـــرام

بـــين أزهــــار الخريــــف الذاويــــه

وتلاشـــــــت في ســـــــكون الاكتئــــاب

كـــــصدى الغريــــد

كـــف عـــن تلـــك الأغـــاني الباسمـــه

أيهـــا العــــصفور

فحيــــاتي ألفــــت لحــــن الأســـى

مــــن زمـــان قـــد تقـــضى، وعـــسى

إن يــــثير الـــشدو، في صـــمت الفـــؤاد

أنــــة الأوتـــــار

لا تغنـــــــيني أغاريـــــــد الـــــــصباح

بلبـــــل الأفـــــراح!

ففـــــؤادي وهــــو مغمـــــور الجـــــراح

بتبـــــاريح الحيـــــاة الباكيـــــة

لـــــيس تـــــستهويه ألحـــــان الـــــسرور

وأغـــــاني النـــــور

إن مـــــن أصـــــغى إلى صـــــوت المنـــــون

وصـــــدى الأجـــــداث،

لـــــيس تـــــستهويه ألحـــــان الطيـــــور،

بـــــين أزهـــــار الربيـــــع الـــــساحرة،

وابتـــــسامات الحيـــــاة الـــــسافرة

عـــــن جـــــلال الله!

غـــــنني يـــا طــــير! أنـــات الجحـــيم،

واســــــــقني الآلام

واتــــرع الكــــأس، بأوجــــاع الحيــــاة،

واســــقني، إنــــي كرهــــت الابتــــسام،

غــــنني، نــــدب الأمــــاني، الخائبــــة،

والليــــالي الــــسود،

غــــنني، صــــوت الظــــلام، المكتئــــب،

إنــــــني أهــــــواه،

هــــاك كــــأس القلــــب، أترعْــــه نــــواح،

واســـكب الحـــزن بـــه، حتـــى الـــصباح،

إنــــه مــــن طينــــة الحــــزن المريــــر

صــــاغه الخــــلاق

بئـــــست الأفــــراح ... أفـــــراح الحيــــاة

إنهــــــا أحــــــلام

تخلـــــب اللــــب بألحـــــان عِـــــذاب

وأغاريـــــــد كــــــأملاك الــــــسما

ثـــــم لا تلبـــــث أن تـــــذوي كمــــا

تــــــذبل الأزهـــــار

نظرة في الحياة

إن الحيــــــاة صــــــراعٌ فيهـــا الـــضعيف يـــداسْ
مــــا فـــاز في ماضـــغيها إلاَّ شـــــديد المـــــراس
للحــــب فيهــــا شـــجون فكـــن فتـــى الاحـــتراس
الكـــــون كـــــون شـــــقاء الكـــــون كـــــون التبـــــاس
الكـــــون كـــــون اخـــــتلاق وضـــــجة واخـــــتلاس
ســــيان عنــــديَ فيــــه الـــسرور؛ والابتئـــاس

بـــــين النوائـــب بـــون للنـــــاس فيـــــه مزايـــــا
الـــــبعض لم يـــــدر إلا الـــبلا ينـــادي البلايـــا
والـــبعض مـــا ذاق منهـــا ســـوى حقـــير الرزايـــا
إن الحيـــــاة ســـــبات سينقـــــضي بالمنايـــــا
ومـــا الـــرؤى فيـــه إلاَّ آمالنـــا، والخطايـــا
فـــإن تـــيقظ كانـــت بـــين الجفـــون بقايـــا

إن السكينة روح … في الليل ليست نظام
والروح شعلة نور … من فوق كل نظام
لا تنطفي برياح الـ … إرهاق أو بالحسام
بل قد يعج لظاها … سيلاً، ويطغى الضرام
كل البلايا... جميعاً … تفنى ويحيا السلام!
والذل سبة عار … لا يرتضيه الكرام!

الفجر يسطع بعد الـ … دجى؛ ويأتي الضيآ
ويرقد الليل قسراً … على مهاد الصفآ
وللشعوب حياة … حيناً وطوراً فنآ
اليأس موت ولكن … موت يثير الشقآ
والجد للشعب روح … تومي إليه الهنآ
فإن تولت تصدت … حياته للبلا

مأتم القلب

ليت شعري!

أي طير

يسمع الأحزان تبكي بين أحشاء الكئيب

ثم لا يتلو على الفجر أغاريد النحيب

بخشوع واكتئاب؟

لست أدري

أي قسر

أخرس الغريد عني؟ أترى مات الشعور

في جميع الكون حتى في حشاشات الطيور

أم بكى خلف الحجاب؟

في الـــــــــــدياجي

كـــــم أنـــــاجي

مـــــسمع القـــــبر بغـــــصّات نحـــــيبي وشـــــجوني

ثـــم أصـــغي، علـــني أسمـــع ترديـــد أنـــيني

فـــــأرى صـــــوتي فريـــــد

فأنـــــــــــادي

يـــــا فـــــؤادي!

مـــات مـــن تهـــوى وهـــذا اللحـــد قـــد ضـــم الحبيـــب

فابـــك يـــا قلـــب! بمـــا فيـــك مـــن الحـــب الكئيـــب

ابـــك يـــا قلـــب! وحيـــد

مــــــات حبّـــــــي

مــــــات قلــــــبي

فـــــاذرفي يـــــا مقلـــــة الليــــل الــــــدراري عــــبرات

فــــوق قلــــبي، فهــــو قــــد ودع أوجــــاع الحيـــــاة

بعـــــــــد أن ذاق اللـــــــــهيب

واندبيـــــــــــــه،

واغـــــــــــسليه،

بــــدموع الفجـــر مـــن أكــــواب زهـــر الزنبــــق

وادفنيـــــه بجــــلال في ضــــــفاف الــــــشفق

لـــــــيرى روح الحبيـــــــب

الأمل والقُنوط

ضعف العزيمة لحدٌ في سكينته

تقضي الحياة، بناه اليأس والوجلُ

وفي العزيمة قوات مسخرةٌ

يخرُّ دون مداها الشامخ الجبلُ

والناس شخصان: ذا يسعى به قدمٌ

من القنوط، وذا يسعى به الأملُ

هذا إلى الموت، والأجداث ساخرة

وذا إلى المجد، والآمال تتصلُ

ما كلّ فعلٍ يجلُّ الناس فاعله

مجداً، ولا كلّ من خاض الدجى بطلُ

المجـــــد صـــــنفان: صـــــنفٌ في تمايلـــــه

لحـــــن الخلـــود، وصـــــنفٌ فوقـــه الخبـــلُ

مـــا المجـــد إلاّ ابتـــسامات يفـــيض بهـــا

فـــمُ الزمـــان إذا مـــا انـــسدَّت الحيـــلُ

ولـــيس بالمجـــد مـــا تـــشقى الحيـــاة بـــه

ويحـــــسد اليـــــوم أمـــــساً ضـــــمَّه الأزلُ

أَيُّها الليل

أيُّهـــا الليـــل! يــــا أبـــا البـــؤس والهـــو

ل! ويــــا هيكـــــل الزمـــــان الرهيــــب!

فيـــــك تجثـــو عــــرائسُ الأمـــل العـــذ

بِ، تــــــصلّي بـــــــصوتها المحبـــــوب

فيـــــثير النـــــشيد ذكـــــرى حيـــــاةٍ

حجبتهـــــا غيـــــوم دهـــــرٍ كئيـــــب

وتـــــرفُّ الـــــشجون مـــــن حـــــول قلـــبي

بــــــسكونٍ وهيبـــــــةٍ وقطـــــــوب

أنــت يــا ليــل! ذرة صــعدت للكــون مــن مــواطيء الجحــيم الغــضوب

أيُّهـــا الليـــل، أنـــت نغـــمٌ شـــجيّ

في شـــفاه الـــدهور، بـــين النحيـــب

إن أنـــشودة الـــسكون الـــتي تـــرتجُّ في صـــوتك الركـــود الرحيـــب

تـــسمع الـــنفس في هـــدوء الأمـــاني

رنـــة الحـــق، والجمـــالِ الخلـــوب

فتـــصوغ القلـــوب منهـــا أغاريـــد

تهـــزُّ الحيـــاة هـــزَّ الخطـــوب

تتلـــوّى الحيـــاة مـــن ألم البـــؤسِ، وتبكـــي بلوعـــة ونحيـــب

وعلـــى مـــسمعيك تنهـــل نوحـــاً

وعـــويلاً مـــرّاً شـــجون القلـــوب

فـــــأرى برقعـــــاً شـــــفوفاً مــــــن الأو

جـــاع، يلقـــي عليـــكِ شـــجو الكـــروب

وأرى في الـــــسكون أجنحـــــة الجـــــ

ـــبّار، مخـــضلَّة بـــــدمعٍ صـــــبيب

فلـــــك الله! مــــــن فــــؤادٍ رحــــيم

ولـــــك الله مـــــن فـــؤادٍ كئيـــبِ

يهجـــع الكـــون في طمأنينـــة العـــصفور، طفـــلاً بـــصدرك الغريـــب

وبأحـــضانك الخفوقـــة يـــستيقظ في نـــضرة الـــضحوك الطـــروب

شـــادياً كـــالطيور بالأمـــل العـــذب، جمـــيلاً كبهجـــة الـــشؤبوب

يـــا ظـــلام الحيـــاة! يـــا روعـــة الحـــزن! ويـــا معـــزف التَّعـــيس الغريـــب!

إنَّ في قلبـــك الكئيـــب لمرتـــاداً لأحـــلام كـــلّ قلـــبٍ كئيـــب

وبقيثـــارة الـــسكينة في كفّيـــك تنهـــلُّ رنَّـــة المكـــروب

فيــك تنمــو زنــابق الحُلُــم العــذب، وتــذوي لــدى لهيــب الخطــوب

خلــف أعماقــك الكئيبــة تنــساب ظــلالُ الــدهور ذات القطــوب

وبفوديــــك في ضــــفائرك الــــسود تــــدبُّ الأيــــام أيَّ دبيــــب

صــاح! إنَّ الحيــاة أنــشودة الحــزن، فرتّــل علــى الحيــاة نحــيبي

إن كــأس الحيــاة مترعــة بالــدّمع، فاســكبْ علــى الحيــاة صــبيبي

إنَّ وادي الظــلام يطفــح بــالهول، فمــا أبعــد ابتــسام القلــوب!

لا يغرَّنَّــك ابتــسام بــني الأرض، فخلــف الــشعاع لــذع اللــهيب

أنــت تــدري أنَّ الحيــاة قطــوبٌ وخطــوبٌ، فمــا حيــاة القطــوب؟

إنَّ في غيبــة الــدهور، تباعــاً، لخطيــبٌ يمــرُّ إثــر خطيــب

سـدّدتْ في سـكينة الكـون للأعمـاق نفـسي لحظـاً بعيـد الرسـوب

نظـرة مزقـتْ شـغاف الليـالي فـرأتْ مهجـة الظـلام الهيـوبِ

ورأتْ في صـميمها لوعـة الحـزن، وأصـغت إلى صـراخ القلـوب

لا تحـاولْ أن تنكـر الـشجو إنّـي قـد خـبرت الحيـاة خـبر لبيـب

فتبرمـت بالـسكينة، والـضجة، بـل قـد كرهـت فيهـا نـصيبي ...

كـن كمـا شـاءت الـسماء كئيبـاً أي شـيء يـسرّ نفـس الأديـب؟

أنفـوس تمـوت، شاخـصة بـالهول، في ظلمـة القنـوط العـصيب؟

أم قلـوبٌ محطمـاتٌ علـى سـاحل لج الأسـى، بمـوج الخطـوب؟

إنمـا النـاس في الحيـاة طيـور قـد رماهـا القـضا بـوادٍ رهيـب

يعـصف الهـول في جوانبـه الـسود، فيقـضي علـى صـدى العنـدليب

قد سألتُ الحياة عن نغمة الفجر، وعن وجمة المساء القطوب

فسمعتُ الحياة في هيكل الأحزان تشدو بلحنها المحبوب:

ما سكوت المساء إلا أنينٌ

ونشيد الصباح غير نحيب

ليس في الدهر طائر يتغنّى

في ضفاف الحياة غير كئيب

خضب الاكتئاب أجنحة الأيام بالدمع، والدم المسكوب

وعجيبٌ أن يفرح الناس في كهف الليالي، بحزنها المشبوب!

كنت أرنو إلى الحياة بلحظٍ

باسمٍ، والرجاء دون لغوب

ذاك عهدٌ حسبته بسمة الفجر، ولكنه شعاع الغروب

ذاك عهد، كأنه رنة الأفراح، تنساب من فم العندليبِ

خفقت ريثما أصخت لها بالقلب حيناً، وبدلت بنحيب

إن خمر الحياة وردية اللون، ولكنها سموم القلوب

جرفـتْ مــن قــرارة القلــب أحلامــي إلى اللحــد، جــائراتُ الخطــوبُ

فتلاشــت علــى تخــوم الليــالي وتهــاوت إلى الجحــيمِ الغــضوب

وثــــوى في دجنــــة الــــنفس ومــــضٌ

لم يــــزل بــــين جيئــــةٍ وذهــــوب

ذكريــات تمــيس في ظلمــة القلــب، ضــئالاً كرائعــات المــشيب

يــا لقلــب تجــرع اللوعــة المــرة مــن جــدول الزمــان الرهيــب!

ومــضت في صــميمه شــعلة الحــزن، فغــشته مــن شــعاع اللــهيب

أُنشودَةُ الرعد

في سكون الليل لما   عانق الليل الخشوع

واختفى صوت الأماني   خلف آفاق الهجوع

رتل الرعد نشيداً   رددته الكائنات

مثل صوت الحق إن صا   ح بأعماق الحياة

يتهادى بضجيج   في خلايا الأودية

مثل جبار من الحق   بأقصى الهاوية

وسألت الليل والليـ   ـل كئيب ورهيب

شاخصاً بالليل والليـ   ـل جميل وغريب

أتُـــرى أنـــشودة الرعـــــ ـــــد أنـــين وحـــنين

رنمتهــــــا بخـــــشوع مهجـــة الكـــون الحـــزين؟

أم هـــي القـــوة تـــسعى باعتـــساف واصـــطخاب

يـــــتراءى في ثنايـــــا صـــــوتها روح العـــــذاب؟

غـــير أن الليـــل قـــد ظـــــ ـــــل ركـــوداً جامـــداً

صـــامتاً مثـــل غـــدير الـــ ـــقفر مـــن دون صـــدى

يا شعر

يــــا شـــــعر! أنــــت فــــم الـــــشعور وصـــــرخة الــــروح الكئيــــب

يــــا شـــــعر! أنــــت صـــــدى نحيــــب القلـــب، والـــصب الغريـــب

يــــا شـــــعر! أنــــت مـــــدامع عَلِقَــــت بأهــــداب الحيــــاة

يــــا شـــــعر! أنــــت دمٌ تفجَّــــر مــــن كلـــوم الكائنــــات

يــــا شـــــعر! قلــــبي ــــ مثلمــــا تــــدري ــــ شـــقيٌّ مظلــــمُ

فيـــــه الجــــراح النجـــــل، يقطــــر مــــن مغاورهـــــا الـــــدَّمُ

جمـــــدت علـــــى شــــفتيه أرزاء الحيــــاة العابـــــسه

فهـــــو التعـــــيس، بـــــه مـــــرارات القلـــــوب البائـــــسه

أبـــــداً ينـــــوح بحرقـــــةٍ بـــــين الأمـــــاني الهاويـــــه

كالبلبـــــل الغريـــــد مـــــا بـــــين الزهـــــور الذاويـــــه

كـــم قـــد نـــصحت لـــه بـــأن يـــسلو، وكـــم عزيتـــه

فـــأبى، ومـــا أصـــغى إلى قـــولي، فمـــا أجديتـــه

كـــم قلـــت: صـــبراً يـــا فـــؤاد، أمـــا تكـــفّ عـــن النحيـــب؟

فـــإذا تجلـــدت الحيـــاة، تبـــددت شـــعل اللـــهيب

يـــا قلـــب! لا تجـــزع أمـــام تـــصلب الـــدهر الحـــصور

فـــإذا صـــرخت توجعـــاً هزئـــت بـــصرختك الـــدهور

يـــا قلـــب! لا تـــسخط علـــى الأيـــام، فـــالزهر البـــديع

يـــصغي لـــضجات العواصـــف قبـــل أنغـــام الربيـــع

يـــا قلـــب! لا تقنـــع بـــشوك اليـــأس، مـــن بـــين الزهـــور

فـــوراء أوجـــاع الحيـــاة عذوبـــة الأمـــل الجـــسور

يا قلب! لا تسكب دموعك بالفضاء فتندم

فعلى ابتسامات الفضاء قساوة لا ترحم

لكن قلبي، وهو مخضلّ الجوانب بالدموع

جاشت به الأحزان إذ طفحت بها تلك الدموع

يبكي على الحلم البعيد بلوعةٍ لا تنجلي

غرداً، كصداح الهواتف في الفلا، ويقول لي:

طهر كلومك بالدموع، وخلِّها وسبيلها

إن المدامع لا تضيع، حقيرها وجليلها

فمن المدامع ما تدفّق جارفاً حسك الحياة

يرمى لهاوية الوجود بكل أشواك الطغاة

فارحم مضاضته ونح معه على أحلامه

فلقد قضى الحلم البديع على لظى آلامه

ردّد علـــــى سمـــــع الـــــدجى أنــــات قلــــبي الواهيـــــه

واســـــكب بأجفــــان الزهــــور دمـــــوع قلـــــبي الداميـــــه

فلعــــل قلـــب الليـــل أشـــفق بـــالقلوب الباكيـــة!

ولعـــل جفـــن الزهـــر أحفـــظ للـــدموع الجاريـــة!

كـــم حركـــت كـــف الأســـى أوتـــار ذيـــاك الحـــنين

فتهاملـــــت أحـــــزان قلـــــبي في أغاريـــــد الأنـــــين

ولكـــم أرقـــت مـــدامعي حتـــى تقرحـــت الجفـــون

ثـــم التفـــتُّ فلـــم أجـــد قلبـــاً يقـــاسمني الـــشجون

فعـــسى يكـــون الليـــل أرحـــم، فهـــو مثلـــي ينـــدب

وعـــسى يـــصون الزهـــر دمعـــي، فهـــو مثلـــي يـــسكب!

قـــد قنعـــت كـــف الـــسماء المـــوتَ بالـــصمت الرهيـــب

فغـــدا كأعمـــاق الكهـــوف، بـــلا ضـــجيج أو وجيـــب

يـــأتي بأجنحـــة الـــسكون كأنـــه الليـــل البهـــيم

لكـــن طيـــف المـــوت قـــاس، والـــدجى طيـــف رحـــيم

مـــا للمنيـــة لا تـــرق علـــى الحيـــاة النائحـــة؟!

ســـيان أفئـــدة تـــئن، أو القلـــوب الـــصادحه

يـــا شـــعر هـــل خلـــق المنـــون بـــلا شـــعور كالجمـــاد؟

لا رعـــشة تعـــرو يديـــه إذا تملَّقـــه الفـــؤاد؟

أرأيـــت أزهـــار الربيـــع وقـــد ذوت أوراقهـــا

فهـــوت إلى صـــدر الـــتراب، وقـــد قـــضت أشـــواقها؟

أرأيـــت شـــحرور الفـــلا مترنمـــاً بـــين الغـــصون

جمـــد النـــشيد بـــصدره لمـــا رأى طيـــف المنـــون؟

فقـــضى وقـــد غاضـــت أغاريـــد الحيـــاة الطـــاهرة

وهـــو مـــن الأغـــصان، مـــا بـــين الزهـــور الباســـرة

أرأيـــــت أمّ الطفــــل تبكـــي ذلـــك الطفـــل الوحيــــد
لمــــا تناولـــه بعنـــف ســــاعد المـــوت الـــشديد؟
أسمعـــت نـــوح العاشـــق الولهـــان مـــا بـــين القبـــور
يبكـــي حبيبتـــه؟ فيـــا لمـــصارع المـــوت الجـــسور!

طفحــــت بأعمــــاق الوجـــود ســـكينة الـــصبر الجليــــد
لمــــا رأى عـــدل الحيـــاة يـــضمه اللحـــد الكنـــود
فتـــدفقت لحنـــاً، يـــردده علـــى سمـــع الـــدهور
صـــوت الحيـــاة بـــضجة ... تـــسعى علـــى شـــفة البحـــور

يـــا شـــعر؟ أنـــت نـــشيد أمـــواج الخـــضم الـــساحرة
الناصـــعات الباسمـــات، الراقـــصات، الطـــاهرة
الـــسافرات، الـــصادحات مـــع الحيـــاة إلى الأبـــد؟
كعـــرائس الأمـــل الـــضحوك يمـــسن مـــا طـــال الأمـــد

هــــــا إن أزهـــــــار الربيـــــــع تبـــــــسمت أكمامهـــــــا

ترنـــــــو إلى الـــــــشفق البعيـــــــد، تغرهـــــــا أحلامهـــــــا

في صـــــدرها أمـــــلٌ يحـــــدق نحـــــو هاتيـــــك النجـــــوم

لكنـــــــه أمـــــــل ســـــــتلحده جبـــــــابرة الوجـــــــوم

فلـــــسوف تغمـــــض جفنهـــــا عـــــن كـــــل أضـــــواء الحيـــــاة

حيـــــث الظـــــلام مخـــــيم في جـــــو ذيـــــاك الـــــسبات

هـــــا إنهـــــا همـــــست بـــــآذان الحيـــــاة غريـــــدها

فتلـــــت عـــــصافير الـــــصباح صـــــداحها ونـــــشيدها

يـــــا شـــــعر! أنـــــت نـــــشيد هاتيـــــك الزهـــــور الباسمـــــه

يـــــا ليـــــتني مثـــــل الزهـــــور، بـــــلا حيـــــاة واجمـــــه

إن الحيـــــاة كئيبـــــة، مغمـــــورة بـــــدموعها....

والـــــشمس أضـــــجرها الأســـــى، في صـــــحوها وهجوعهـــــا

فتجرعـــــت كأســـــاً دهاقـــــاً مـــــن مشعـــــشعة الـــــشفق

فتمايلــــــت ســــــكرى، إلى كهــــــف الحيـــــاة ... ولم تفـــــق

يـــا شـــعر: أنـــت نحيبهـــا لمـــا هـــوت لـــسباتها

يـــا شـــعر! أنـــت صـــداحها، في موتهـــا، وحياتهـــا

انظـــر إلى شـــفق الـــسماء، يفـــيض عـــن تلـــك الجبـــال

بـــــشعاعه الخـــــلاب يغمرهـــــا ببـــــسمات الجمـــــال

فيـــثير في الـــنفس الكئيبـــة عاصـــفاً لا يركـــد

ويـــؤجج القلـــب المعـــذب شـــعلة لا تخمـــد

يـــا شـــعر أنـــت جمـــال أضـــواء الغـــروب الـــساحرة

يـــا همـــس أمـــواج المـــساء الباسمـــات الحـــائرة

يـــا شـــعر! يـــا قيثـــارة الأحـــلام! يـــا ابـــن صـــبابتي!

لـــولاك مـــت بلـــوعتي، وبـــشقوتي، وكـــآبتي

فيـــك انطـــوت نفـــسي، وفيـــك ســـكبت كـــل مـــشاعري

فاصـــدح علـــى قمـــم الحيـــاة، بلـــوعتي يـــا طـــائري

مُنَاجَاة

أنـــت يـــا شـــعر فلـــذة مـــن فـــؤادي

تتغنـــى... وقطعـــة مـــن وجـــودي!

فيـــك مـــا في جـــوانحي مـــن حـــنين

أبـــديّ إلى صـــميم الوجـــود

فيـــك مـــا في خـــواطري مـــن بـــلاء

فيـــك مـــا في عـــواطفي مـــن نـــشيد

فيـــك مـــا في مـــشاعري مـــن وجـــوم

لا يغـــني... ومـــن ســـرور عهيـــد

فيـــك مـــا في عـــوالمي مـــن ظـــلام

ســـرمدي؛ ومـــن صـــباح وليـــد

فيـــك مـــا في عـــوالمي مـــن نجـــوم

ضـــاحكات خلـــف الغمـــام الـــشرود

فيـــك مـــا في عـــوالمي مـــن ضـــباب

وســــــراب؛ ويقظـــــة؛ وهجـــــود

فيـــك مـــا في طفـــولتي مـــن ســـلام

وقنـــــوع؛ وغبطـــــة؛ وســـــعود

فيـــك مـــا في مـــشيبتي مـــن أمـــان

باسمـــــات، ومـــــن غـــــرام ســـــعيد

فيـــك مـــا في شـــبيبتي مـــن قنـــوط

مـــــدلهم؛ وحـــــيرة؛ وجمـــــود

فيـــك تـــشدو مـــع الربيـــع طيـــوري

وتغـــــني مـــــع الـــــصباح ورودي

فيـــك ألقـــي بـــذور نفـــسي فتلفـــي

في ثنايـــــاك خـــير نبـــع بـــــرود

فيـك أجـني في الـصيف مـا بـذرت نفـسي حواليـك مـن بـذور الخلـود

فيـــك ترعـــى مـــن الخريـــف أعاصـــ

ـــيري، وتـــدوي صـــواعقي ورعـــودي

فيـــك تـــذوي زهـــور قلـــبي فتلقـــى

مـــا لهـــا مـــن غـــدائر؛ وبـــرود

فيـــك يبـــدو شـــتاء نفـــسي عبوســـاً

شـــاحب اللـــون عـــاري الأملـــود

كللتـــه الحيـــاة بـــالحزن الـــدامي

وغـــــشته بالريـــــاح الـــــسود

أنــــت يـــا شـــعر صـــفحة مـــن حيـــاتي

أنـــت يـــا شـــعر قـــصة مـــن وجـــودي

أنـــت يـــا شـــعر ـــ إن فرحـــتُ ـــ أغاريـــدي، وإن رنـــت الكآبـــة عـــودي

أنـــت يـــا شـــعر كـــأس خمـــر جميـــل

أتلـــــهى بهـــــا خـــــلال اللحـــــود

أتحـــــساه في الـــــصباح لأنـــــسى

مـــــا تقـــــضّى في أمـــــسيَ المفقـــــود

وأناجيــــــه في المـــــساء ....لألهـــــو

بحميــــــاه عـــــن ظـــــلام الوجـــــود

أنـــــا لـــولاك لم أطـــق عنـــت الدهـــــ

ـــــر؛ ولا فرقـــــة الـــــصباح البعيـــــد

أنـــت مـــا نلـــتُ مـــن كهـــوف الليـــالي

وتـــــصفحت مـــــن كتـــــاب الخلـــــود

فيـــك مـــا في حقيبـــة الكـــون مـــن عقـــد حـــصى زائـــف ودر نـــضيد

فيـــك مـــا في الوجـــود مـــن حلـــك داج، ومـــا فيـــه مـــن ضـــياء بعيـــد

فيـــك مـــا في الوجـــود مـــن نغـــم حلـــو

ومــــا فيــــه مــــن زئــــير الأســــود

فيـــك مـــا في الوجـــود مـــن جبـــل وعـــ

ـــر؛ ومـــا فيـــه مـــن حـــضيض وهيـــد

فيـــك مـــا في الوجـــود مـــن حـــسك يـــد

مـــي، ومـــا فيـــه مـــن غـــضيض الـــورود

فيـــك مـــا في الوجـــود مـــن زهـــر حلـــو

ومــــا فيــــه مــــن هــــشيم حــــصيد

فيـــك مـــا في الوجـــود مـــن وهـــج الـــصيـ

ـــف ومـــا فيـــه مـــن شـــتاء عتيـــد

فيـــك مـــا فيـــه مـــن خريـــف حـــزين

فيـــك مـــا فيـــه مـــن ربيـــع جديـــد

فيـك مـا في الوجـود حـب بنـو الـدنيا قـصيدي؛ أم لم يحبـوا قـصيدي!

فـــــسواء علـــــى الطيـــــور إذا غنـــــت

هتـــــاف الـــــشؤوم والمـــــستعيد

وســـــــواء علـــــــى النجـــــــوم إذا لا

حـــتْ هـــدوء الـــدجى وقـــصف الرعـــود

وســـواء علـــى الـــورود أفي الغـــيران فاحـــت أم بـــين نهـــد وجيـــد!

الإيمان بالحياة

مــا كنــت أحــسب بعــد موتــك يــا أبــي

ومـــــشاعري عميـــــاء بـــــالأحزان

أنـــي ســـأظمأ للحيـــاة، وأحتـــسي

مـــن كأســـها المتـــوهج النـــشوان

وأعـــود للـــدنيا بقلـــب خـــافق

للحـــب والأفـــراح والألحـــان

ولكـــل مـــا في الكـــون مـــن صـــور المنـــى

وغرائـــب الأهـــواء والأشـــجان

حتـــى تحركـــت الـــسنون وأقبلـــت

فـــتن الحيـــاة بـــسحرها الفنـــان

فـــإذا أنـــا طفـــل الحيـــاة المنتـــشي

شـــــوقاً إلى الأضـــــواء والألـــــوان

وإذا التـــــشاؤم بالحيـــــاة ورفـــــضها

ضـــرب مـــن البهتـــان والهـــذيان

إن ابـــــن آدم في قـــــرارة نفـــــسه

عبـــد الحيـــاة الـــصادق الإيمـــان

الجمال المنشود

يـــا عـــذارى الجمـــال والحـــب والأحـــ

ـــلام، بـــل يـــا بهـــاء هـــذا الوجـــود

قـــد رأينـــا الـــشعور منـــسدلات

كللـــت حـــسنَها صـــباحُ الـــورود!

ورأينـــا الخـــدود ضـــرجها الـــسحـ

ـــر! فآهـــاً مـــن ســـحر تلـــك الخـــدود

ورأينـــا الـــشفاه تبـــسم عـــن دنـــ

ـــيا مـــن الـــورد غـــضة أملـــود!

ورأينـــــا الجفـــــون تبــــسم أو تحلـــــــ

ـــــــم ســــكرى بالــــشدو؛ بالتغريـــــد

ورأينـــــا النهـــــود تهتـــــزّ كـــــالأز

هـــــار في نــــشوة الـــــشباب الــــسعيد

تـــــوقظ الوجـــــد في القلـــــوب ولكـــــن

ليـــــت شـــــعري! مـــــاذا وراء النهـــــود؟!

مـــا الـــذي خلـــف هـــذه الفتنـــة الغـــر

اء في ذلـــــك القـــــرار البعيـــــد؟

أنفـــــوس جميلـــــة كطيـــــور الغـــــا

ب تـــــشدو بمـــــسترق النـــــشيد

طـــــاهرات كأنهـــــا أرج الأزهـــــا

ر في مولـــــد الربيـــــع الجديـــــد!

وقلـــــوب وضـــــيئة كنجـــــوم الليـــــ

ـــــل ضـــــواعة كغـــــض الـــــورود!

أم ظـــــلام كأنــــه قطــــع الليـــــ

ـــــل وهـــول يـــشيب رأس الوليـــد

وخـــــضم يمــــوج بـــــالإثم والمنكـــــ

ــــر والـــشر والـــضلال المديــــد

صـــانكن الإلـــه مـــن ظلمـــة الـــروح

ومــــن ضـــــلة الـــضمير العنيـــد

فظـــــلام النفـــوس شـــر ظـــــلام

ســـرمدي الأســـى شـــنيع الخلـــود

يـــــرزح القلـــب فيــــه بـــالألم المـــر

ويـــــــشقى بعيـــــــشه المنكــــــود

ورواء الـــــشباب يــــذبل كـــــالأو

راق في ثــــــورة الخريــــــف العتيـــــد

غـــير بـــاق في الكـــون إلا جمـــال الـــرو

ح غــــضاً علـــى الزمـــان الأبيـــد

يا ابن أمي

خلقـــت طليقـــاً كطيـــف النـــسيم

وحـــراً كنـــور الـــضحى في سمـــاه

تغـــرد كـــالطير أيـــن انـــدفعت

وتـــشدو بمـــا شـــاء وحـــي الإلـــه

وتمـــرح بـــين ورود... الـــصباح

وتـــنعم بـــالنور أنـــى .... تـــراه

وتمـــشي كمـــا شـــئت بـــين المـــروج

وتقطـــف ورد الربـــى في ربـــاه

كـــذا صـــاغك الله يـــا ابـــن الوجـــود

وألقتـــك في الكـــون هـــذي الحيـــاه

فمـــا لـــك ترضـــى بـــذل... القيـــود

وتحـــني لمـــن كبلـــوك الجبـــاه؟!

وتـــسكت في الـــنفس صـــوت الحيـــاة الـــ

ـــقوي إذا مـــا تغنـــى صـــداه

وتطبـــق أجفانـــك الناعـــسات...

عـــن الفجـــر والفجـــر عـــذب ضـــياه

وتقنـــع بـــالعيش بـــين الكهـــوف

فـــأين النـــشيد؟ وأيـــن الأيـــاه؟

أتخـــشى نـــشيد الـــسماء الجميـــل؟

أترهـــب نـــور الـــسما في فـــضاه؟

ألا انهـــض وســـر في ســـبيل الحيـــاة

فمـــن نـــام لم تنتظـــره الحيـــاه!!

ولا تخـــــشَ ممــــــا وراء القــــلاع

فمــــا ثـــم إلا الـــضحى في صـــباه

وإلا ربيــــــع الوجـــــود الغريـــــر...

يطـــــــرز بـــــــالورد ضـــــــافي رواه!

وإلا أريـــــــج زهـــــــور الـــــصباح

ورف الأشـــــعة بـــــين الميــــــاه!!

وإلا حَمـــــــام المــــــروج الأنيـــــق

يغـــــــرد منـــــــدفعاً في غنــــــاه!

إلى النـــور فـــالنور عـــذب جميـــل

إلى النـــور فـــالنور ظـــل الإلـــه!

إلى طغاة العالم

ألا أيهـــا الظــــالم المــــستبدُ حبيـــب الفنـــاء عـــدو الحيـــاه
ســـخرتَ بأنـــات شـــعب ضـــعيفٍ وكفــك مخـــضوبة مـــن دمـــاه
وعـــشت تـــدنس ســـحر الوجـــود وتبـــذر شـــوك الأســـى في ربـــاه

رويـــدك لا يخـــدعنك الربيـــعُ وصـــحو الفـــضاء وضـــوء الـــصباح
ففـي الأفـق الرحـب هـول الظـلام وقــصف الرعــود وعــصف الريــاح
ولا تهـــزأنَّ بنـــوح الـــضعيف فمــن يبــذر الــشوك يجــن الجــراح!

تأمـــل هنالـــك أنـــى حـــصدتَ رؤوس الـــورى وزهـــور الأمـــل
ورَوَّيـــت بالـــدم قلـــب الـــتراب وأشـــربته الـــدمع حتـــى ثمـــل
ســـيجرفك الـــسيل ســـيل الـــدما ويأكلــك العاصــف المــشتعل!

إرادة الحياة

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بدّ أن يستجيب القدرْ!!

ولا بد لليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر !!

ومن لم يعانقه شوق الحياة

تبخر في جوها واندثر

كذلك قالت لي الكائنات

وحدثني روحها المستتر

ودمـــــدمت الــــريح بــــين الفجـــاج

وفـــوق الجبـــال وتحـــت الـــشجر:

((إذا مـــــا طمحـــــت إلى غايـــــة

لبـــست المنـــى وخلعـــت الحـــذر!

ولم أتخـــــوف وعـــــور الـــــشعاب

ولا هبـــــة اللـــــهب المـــــستعر

ومـــــن لا يحـــب صـــعود الجبـــال

يعـــش أبـــد الـــدهر بـــين الحفـــر))!

فعجـــــت بقلـــبي دمـــــاء الـــشباب

وضـــجت بـــصدري ريـــاح أخـــر

وأطرقـــت أصـــغي لعـــزف الريـــاح

وقـــصف الرعـــود، ووقـــع المطـــر

وقالـــت لـــي الأرض لمــا تــساءلت يــا أم هـــل تكـــرهين البـــشر؟!

((أبـــارك في النـــاس أهـــل الطمـــوح

ومـــــن يـــستلذ ركـــوب الخطـــــر!

وألعـــــن مـــــن لا يماشـــــي الزمـــــان

ويقنـــــع بـــــالعيش عـــــيش الحَجــــر!

هـــــو الكـــون حـــــي يحـــب الحيـــاة

ويحتقـــــــر الميِّـــــــتَ المنـــــــدثر!

فـــلا الأفـــق يحـــضن مَيْـــت الطيـــور

ولا النحـــــل يلـــــثم ميـــــت الزهـــــر!

ولـــــولا أمومـــــة قلـــــبي الـــــرؤوم

لفـــرت عـــن الميـــت تلـــك الحفـــر!

فويـــــل لمـــــن تُـــــشِقْه الحيـــــا

ة مـــن لعنـــة العـــدم المنتـــصر))!

وفي ليلـــــة مــــن ليــــالي الخريــــف

مثقلــــــــة بالأســـــــى والـــــــضجر

ســــكرت بهــــا مــــن ضــــياء النجــــوم

وغنيــــــت للنهــــــر حتـــــى ســـــكر!!

ســــألت الــــدجى هــــل تعيــــد الحيــــاة

لمـــــن أذبلتـــــه ربيــــــع العمـــــر؟

فلــــــم يــــــتكلم فــــــؤاد الظـــــلام

ولم تـــــــترنم عـــــــذارى الـــــــسحر

وقـــــال لــــــي الغــــــاب في رقـــــةٍ

محببــــــةٍ مثــــــل خفــــــق الــــــوتر:

((يجــــيء الــــشتاء شــــتاء الــــضباب

شـــــتاء الثلـــــوج شـــــتاء المطـــــر

فينطفئ السحر، سحر الغصون

وسحر الثمار، وسحر الزهر

وسحر السماء القوي البديع

وسحر المروج الشهي العطر

وتهوي الغصون وأوراقها

وأزهار عهد جميل نضر

وتلهو بها الريح في كل واد

ويدفنها السيل أنى عفر

ويفنى الجميع كحلم بديع

تألق في مهجة واندثر

وتبقى البذور التي حملت

ذخيرة عمر جميل غبر

وذكـــــرى فـــــصول، ورؤيـــــا غيـــــوم

وأشـــــباح دنيـــــا تلاشـــــت زمـــــر

معانقـــــة وهـــــي تحـــــت الثلـــــوج

وتحـــــت الـــــضباب وتحـــــت المـــــدر

لطيـــــف الحيـــــاة الـــــذي لا يُمـــــل

وقلـــــب الربيـــــع الجميـــــل العطـــــر

وحالمـــــة بأغـــــاني الطيـــــور

وعطـــــر الزهـــــور، وطعـــــم الثمـــــر

ويمـــــشي الزمـــــان، فتنمـــــو صـــــروف

وتـــــذوي صـــــروف، وتحيـــــا أخـــــر

وتـــــصبح أحلامهـــــا يقظـــــة

موشـــــحة بـــــرداء الـــــسحر

تــــــسائل: أيـــــن ضـــــباب الـــــصباح

وســــــحر المـــــساء، وضـــــوء القمـــــر

وأســـــراب ذاك الفـــــراش الجميـــــل

ونحـــــل يغــــني، وغــــيم يمـــــر؟

ظمئـــــت إلى النـــــور فـــــوق الغـــــصون

ظمئـــــت إلى الظـــــل تحـــــت الـــــشجر

ظمئـــــت إلى النبـــــع بـــــين المـــــروج

يغـــــني ويـــــرقص فـــــوق الزهـــــر

ظمئـــــت إلى الكـــــون... أيـــــن الوجـــــود

وأيـــــن أرى العـــــالم المنتظـــــر؟!

هـــــو النـــــور بـــــين رحـــــاب الفـــــضاء

وفي عـــــالم اليقظـــــات الكـــــبر!

ومـــا هـــو إلا كخفـــق الجنـــا

ح حتـــى نمـــا شـــوقها وانتـــصر!

فـــصعّدت الأرض عـــن صـــدرها

وأبـــصرت النـــور عـــذب الـــصور!

وجـــاء الربيـــع بأطيافـــه

وأحلامـــه وصـــباه النـــضر

وقبلـــها قبلـــة في الـــشفاه

تعيـــد الـــشباب إلى مـــا غـــبر

وقـــال لهـــا قـــد منحـــت الحيـــاة

وخلِّـــدت مـــن نـــسلك المـــدخر

ومـــن ناجـــت النـــور أحلامُـــه

يباركـــه النـــور أنـــى ظهـــر!

إليك الفضاء، إليك الضياء

إليك الثرى الحالم المزدهر!

فميدي كما شئت فوق المروج

بحلو الثمار، وغض الزهر

وناجي النسيم وناجي الغيوم

وناجي النجوم، وناجي القمر

ولا تسأمي نغمات الحياة

ولا فتنة العالم المعتبر))!

وشفّ الدجى عن جمال عميق

قوي الغواية، حلو الصور

ومُدَّ على الكون سحر غريب

يصرفه ساحر مقتدر

وضـــــاءت شمــــوع نجــــوم الـــــسماء

وضـــــاع البخـــــور بخـــــور الزهــــــر

ورفـــــــرف روح غريـــــــب الجمـــــــال

بأجنحــــــة مـــــن ضـــــياء القمــــــر

ورق نـــــــشيد الحيـــــــاة المقـــــــد

س في هيكــــل حــــالم قـــــد ســـــحر

وأعلــــــن في الكـــــون أن الطمـــــوح

حبيـــــــب الحيـــــاة وروح الظفـــــــر!!

إذا طمحـــــــت للحيـــــــاة النفــــوس

فـــــلا بـــــد أن يـــــستجيب القـــــدر!!

صلوات في هيكل الحب

عذبـــة أنــــت كالطفولـــة كــــالأحلام

كــــــاللحن، كالـــــصباح الجديــــــد!

كالـــسماء الـــضحوك، كالليلـــة القمـــراء

كــــــالورد، كابتـــــسام الوليـــــــد!

يـــا لهـــا مـــن طهـــارة تبعـــث التقديـــ

ـــــس، في مهجــــة الـــــشقي العنيــــد!

يـــا لهـــا رقـــة، يكـــاد يـــرف الـــور

د منهـــــا في الــــصخرة الجلمـــــود!

أي شـــيء تـــراك؟ هـــل أنـــت فينـــ
ـــيس تهـــادت بـــين الـــورى مـــن جديـــد؟

لتعيـــد الـــشباب والفـــرح المعـــســ
ـــول للعـــالم التعـــيس العميـــد!

أم مـــلاك الفـــردوس جـــاء إلى الأر
ض ليحيـــي روح الـــسلام العهيـــد

أنـــت مـــا أنـــت؟ أنـــت رســـم جميـــل
عبقـــري مـــن فـــن هـــذا الوجـــود

فيـــك مـــا فيـــه مـــن غمـــوض وعمـــق
وجمـــال مقـــدس معبـــود!

أنـــت مـــا أنـــت؟ أنـــت فجـــر مـــن الـــ
ـــسحر تجلـــى لقلـــبي المعمـــود!

فـــأراه الحيـــاة في مونـــق الـــسحر

وجلّـــى لـــه خفايـــا الخلـــود!

أنـــت روح الربيـــع تختـــال في الـــد

نيـــا، فتهتـــز رائعـــات الـــورود

وتهـــب الحيـــاة ســـكرى مـــن العطـــر، ويـــدوي الوجـــود بالتغريـــد!

كلمـــا أبـــصرتك عينـــاي تمـــشين بخطـــو، موقـــع، كالنـــشيد

خفـــق القلـــب للحيـــاة ورفّ الزهـــر، في حقـــل عمـــري المجـــرود

وانتـــشت روحـــي الكئيبـــة بالحـــب

وغنـــت كالبلبـــل الغريـــد!

أنـــت تحـــيين في فـــؤادي مـــا قـــد

مـــات في أمـــسي الـــسعيد الفقيـــد

وتـــشيدين في خرائـــب روحـــي

مـــا تلاشـــى في عهـــدي المحـــدود

من طموح إلى الجمال، إلى الفن

إلى ذلك الفضاء البعيد

وتبثين رقة الشوق والأحلام

والشجو، والهوى في نشيدي!

بعد أن عانقت كآبة أيامي

فؤادي وألجمت تغريدي

أنت أنشودة الأناشيد غنا

ك إله الغناء رب القصيد!

فيك شب الشباب وشحه الـ

ـسحر، وشدو الهوى وعطر الورود

وتراءى الجمال يرقص رقصاً

قدسياً على أغاني الوجود!

وتهـــــــاوت في أفــــــق روحـــــــك أوزا

ن الأغــــــاني، ورقــــــة التغريـــــــــد!

فتمايلـــــــت في الحيـــــاة كلحــــــن

عبقـــــري الخيــــال، حلـــــو النـــــشيد!

خطــــــوات ســـــــكرانة بالأناشــــــيد

وصــــــوت كرجــــــع نـــــاي بعيـــــد!

وقـــــوام يكـــــاد ينطـــــق بالألحـــــان

في كــــــــل وقفــــــــة وقعــــــــود!

كــــل شـــيء موقـــــع فيـــــك حتـــــى

لفتـــــة الجيــــــد، واهتـــــزاز النهـــــود!!

أنــت... أنــت الحيــاة في قدســها الــسامي وفي ســحرها الــشجي الفريــد!

أنـــت... أنـــت الحيـــاة في رقـــة الفجـــر وفي رونـــق الربيـــع الوليـــد!

أنـــت... أنـــت الحيـــاة كـــل أوان

في رواء مـــن الـــشباب جديـــد!

أنـت دنيـا مـن الأناشـيد والأحـلام، والـسحر، والخيـال المريـد!

أنـت فـوق الخيـال، والـشعر، والفـن، وفـوق النهـى، وفـوق الحـدود!

أنـــت قدســـي ومعبـــدي وصـــباحي

وربيعـــي، ونـــشوتي، وخلـــودي!

يـــا ابنـــة النـــور إنـــني أنـــا وحـــدي

مـــن رأى فيـــك روعـــة المعبـــود!

فـــدعيني أعـــيش في ظلـــك العـــذب

وفي قـــرب حـــسنك المعبـــود

عيـــشة للجمـــال والفـــن والإلهـــام

والطهـــر والـــسنى، والـــسجود!

عيشة الناسك البتول يناجي الرب في نشوة الذهول الشديد!

وامنحيني السلام والفرح الروحي، يا ضوء فجري المنشود!

وارحميني فقد تهدمت في كون من اليأس والظلام مشيد

أنقذيني من الأسى فلقد أمسيت لا أستطيع حمل وجودي

في شعاب الزمان والموت أمشي

تحت عبء الحياة جم القيود

وأماشي الورى ونفسي كالقبر، وقلبي كالعالم المهدود!

ظلمة ما لها ختام، وهول

شائع في سكونها الممدود

وإذا ما استخفني عبث الناس

تبسمت في أسى وجمود

بسمة مرة كأني استل

من الشوك ذابلات الورود!

وانفخـــي في مـــشاعري مـــرح الـــدنيا

وشـــدي مـــن عزمـــي المجهـــود

وابعثـــي في دمـــي الحـــرارة علّـــي

أتغنـــى مـــع المنـــى مـــن جديـــد!

وأبـــث الوجـــود أنغـــام قلـــب

بلبلـــي مكبـــل بالحديـــد!

فالـــصباح الجميـــل يـــنعش بالـــدفء

حيـــاة المحطـــم المكـــدود!

أنقـــذيني فقـــد ســـئمت ظلامـــي

أنقـــذيني فقـــد مللـــت ركـــودي

آه يـــا زهرتـــي الجميلـــة لـــو تـــدرين مـــا جـــدّ في فـــؤادي الوحيـــد!

في فـــؤادي الغريـــب تخلـــق أكـــوان مـــن الـــسحر ذات حـــسن فريـــد

وشموس وضاءة ونجوم

تنثر النور في فضاء مديد

وربيع كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب السعيد

ورباة لا تعرف الحلك الداجي، ولا ثورة الخريف العتيد

وطيور سحرية تتناغى

بأناشيد حلوة التغريد

وقصور كأنها الشفق المخضوب، أو طلعة الصباح الوليد

وغيوم رقيقة تتهادى

كأباديد من نثار الورود

وحياة شعرية هي عندي

صورة من حياة أهل الخلود

كل هذا يشيده سحر عينيك

وإلهام حسنك المعبود!

وحـــــرام عليـــــك أن تهـــــدمي مـــــا

شــــاده الحـــسن في الفـــؤاد العميـــــد

وحـــرام عليـــك أن تـــسحقي آمـــال نفـــس تـــصبو لعـــيش رغيـــد!

منـــــك ترجـــــو ســـــعادة لم تجـــــدها

في حيـــاة الـــورى وســـحر الوجـــود!

فالإلــه العظـــيمْ لا يـــرجم العبـــد، إذا كـــان في جـــلال الـــسجود!

في ظِل وادي الموت

نحــــن نمـــشي وحولنـــا هـــذه الأكـــو

ان، تمـــــشي، لكــــن لأيــــة غايــــة...؟

نحـــن نـــشدو مـــع العـــصافير للـــشمس

وهــــذا الربيـــــع يـــــنفخ نايــــه...!

نحـــــن نتلـــــو روايــــة الكــــون للمـــــو

ت، ولكـــــن مـــاذا ختـــــام الروايـــــة...؟

هكــــــذا قلـــــت للريـــــاح فقالـــــت:

ســل ضـــمير الوجـــود كيـــف البدايـــة...؟!

وتغــــشى الـــــضباب نفـــــسي فـــــصاحت

في مــــلال مـــــر: إلى أيــــن أمـــــشي...؟!

قلــــت: ســــيري مـــــع الحيـــاة. فقالـــت:

مــا جنينـــا تـــرى مـــن الـــسير أمـــس...؟

فتهافـــــــت كالهـــــــشيم علـــــــى الأر

ض ونـاديـــت: أيـــن يـــا قلـــب رفـــشي...؟

هاتـــــه، علـــــني أخـــــط ضـــــريحي

في ســـكون الـــدجى، وأدفــن نفـــسي...؟

هاتـــــه، فـــــالظلام حـــــولي رهيـــــب

وضــــباب الأســـــى منـــــيخ عليــــا

وكـــؤوس الغـــرام أترعهـــا الفجـــر، ولكـــن تحطمـــت في يـــديا!

والـــــشباب الغريـــــر ولى إلى المــــــا

ضــــي، وخلــــى النحيــــب في شــــفتيا

هاتـــــه يـــــا فـــــؤاد إنـــــا غريبـــــا

ن نـــــصوغ الحيــــاة فنــــاً شــــجيا

قـــد رقـــصنا مـــع الحيـــاة طـــويلاً

وشـــــدونا مـــع الـــشباب ســــنينا

وعــــدونا مـــع الليـــالي حفــــاة

في شــعاب الزمـــان حتـــى دمينــــا

وأكلنـــــا الـــــتراب حتـــــى مللنـــــا

وشـــــربنا الـــــدموع حتــــى روينــــا

ونثرنـــــا الأحـــــلام والحـــــب والآلا

م والحـــــزن يـــــسرة ويمينـــــا

ثـم مـاذا...؟ هـذا أنـا صـرت في الـدنيا بعيـداً عـن لهوهـا وغناهـا

في ظـلام الفنـاء، أدفـن أيـا

مـي ولا أسـتطيع حتـى بكاهـا!

وزهـور الحيـاة، تهـوي بـصمت

محـزن، مـضجر، علـى قـدميا

جـف سـحر الحيـاة. يـا قلـبي البـا

كـي فهيـا نجـرب المـوت .... هيـا!

الأشواق التائهة

يـــا صــــميم الحيـــاة إنـــي وحيـــد

مــــدلج تائـــه فـــأين شـــروقك؟

يـــا صــــميم الحيـــاة إنـــي فـــؤاد

ضـــائع ظـــامئ فـــأين رحيقـــك؟

يـــا صــــميم الحيـــاة قـــد وجـــم النـــاي

وغـــام الفـــضاء فـــأين بروقـــك؟

يـــا صــــميم الحيـــاة أيـــن أغانيـــك

فتحـــت النجـــوم يـــصغي مـــشوقك؟

كنـــت في فجـــري الموشـــح بــــالأحلام

عطــــــــــراً يـــــــــرف فــــــــــوق ورودك

حالمــــــا ينهــــل الــــضياء ويـــــصغي

لــــــك في نــــــشوة بـــــوحي نــــشيدك

ثــــم جــــاء الـــدجى وأمــــسيت أوراقـــاً

بــــــداداً مـــــن ذابـــــلات الــــــورود

وضـــــباباً مـــــن الــــشذى يتلاشـــــى

بـــين هـــول الـــدجى وصـــمت الوجـــود

كنـــت في فجـــرك المغلـــف بالـــسحر

فـــــضاء مــــن النـــــشيد الهـــــادي

وســــــحاباً مــــن الــــرؤى يتهـــــادى

في ضـــــــــــــمير الآزال والآبـــــــــــاد

وضــــياءً يعـــــانق العــــالم الرحـــــب

ويــــــسري في كــــــل خـــــاف وبــــاد

وانقــضى الفجــر، فانحــدرت مــن الأفــق

ترابــــــــاً إلى صـــــــميم الـــــــوادي

يــا صــميم الحيــاة كــم أنــا في الــدنيا

غريــــــب أشــــــقى بغربــــة نفــــسي

بــــين قــــوم لا يفهمــــون أناشــــيد

فــــــؤادي ولا معـــــــاني بؤســــــي

في وجــــــــود مكبـــــــل بقيــــــود

تائـــــه في ظـــــلام شـــــك ونحــــس

فاحتـــضني وضـــمني لــــك بالماضـــــ

ـــــي فهــــذا الوجـــود علـــة يأســـي

لم أجـــــد في الوجـــــود إلا شــــــقاءً

ســــــرمدياً ولـــــــذةً مـــــــضمحلة

وأمـــــاني يغـــــرق الـــــدمع أحلاهـــــا

ويفـــــني يـــــمّ الزمـــــان صـــــداها

وأناشـــــيد يأكـــــل اللـــــهب الـــــدامي

مـــــسراتها ويبقـــــي أســـــاها

وورودا ً تمـــــوت في قبـــــضة الأشـــــ

واك.... مـــا هـــذه الحيـــاة المملـــة؟!

ســــــأم هــــــذه الحيــــــاة معـــــادٌ

وصـــــــباحٌ يكــــــر في إثـــــر ليـــــل

ليــــتني لم أفـــــد إلى هــــــذه الــــــدنيا

ولم تــــــسبح الكواكــــــب حـــــولي

ليــــتني لم يعــــانق الفجـــــر أحلامـــــي

ولم يلــــــثم الــــــضياء جفـــــوني

ليــــتني لم أزل كمــــا كنــــت ضـــوءاً

شـــائعاً في الوجـــود غــــير ســـجين

في ظلال الغاب

يـــا ليـــت شـــعري! هـــل لليـــل الـــنفس مـــن صـــبح قريـــب...

فتفـــر عاصـــفة الظـــلام... وتهجـــع الـــريح الغـــضوب...

ويرتـــل الإنـــسان أغنيـــة مـــع الـــدنيا طـــروب...؟!

مـــا للريـــاح تهـــب في الـــدنيا، ويـــدركها اللغـــوب

إلا ريـــاحي، فهـــي جامحـــة تمردهـــا عـــصيب؟

مـــالي تعـــذبني الحيـــاة كـــأنني خلـــق غريـــب؟

وتهد من قلبي الجميل، فهل لقلبي من ذنوب؟

وإذا سألت: لم الوجود، وكله هم مذيب؟

قالت((نواميس السماء قضت ومالك من هروب))

آه يا قلبي! وإن شقيت كشقوته قلوب

أنقى من الموج الوضيء... ومن نشيد العندليب

لم تقترف إثم الحياة ولا تناولت اللهيب

يا مهجة الغاب الجميل! ألم يصدعك النحيب؟

يا وجنة الورد الأنيق! ألم تشوهك الندوب

يا جدول الوادي الطروب! ألم يرنقك القطوب؟

يا غيمة الأفق الخضيب! ألم تمزقك الخطوب؟

يا كوكب الشفق الضحوك! أما ألم بك الشحوب؟

ها أنت تضحك في سمائك لا تهم ولا تخيب!

تلقـــي علـــى قـــنن الجبـــال الـــشم حالمـــة الغيـــوب

ولكـــي تغنيـــك الجـــداول لحنهـــا العـــذب الحبيـــب

وتـــرى جمالـــك مـــن بنـــات الغـــاب معطـــار لعـــوب

ممـــشوقة في فرعهـــا تـــاج مـــن الـــورد الخـــضيب

تتلـــو أناشـــيد الربيـــع كأنهـــا نجـــوى القلـــوب

يـــا كوكـــب الـــشفق الجميـــل! وأنـــت مبتهـــل كئيـــب

لج في الـــسماء... وغـــن أبنـــاء الـــشقاوة والخطـــوب

أنـــشودة تهـــب الحيـــاة لكـــل مبتـــئس غريـــب

فـــالطير قـــد أغفـــت وأســـكت صـــوتها الليـــل الهيـــوب

وأبـــسط جناحـــك في الوجـــود... فإنـــه عـــذب خلـــوب

متـــألق بـــين النجـــوم كأنـــه حلـــم طـــروب

وانــــشر ضـــياءك ســـاطعاً ليـــنير أعمـــاق القلـــوب

فعلـــى جوانبهـــا مـــن الأحـــزان ديجـــور رهيـــب

مـــا للميـــاه نقيـــة حـــولي، ومنفجـــري مـــشوب؟

مـــا للـــصباح يعـــود للـــدنيا، وصـــبحي لا يـــؤوب؟

مـــا لـــي يـــضيق بـــي الوجـــود، وكـــل مـــا حـــولي رحيـــب؟

مـــا لـــي وجمـــت، وكـــل مـــا في الغـــاب مغـــترد طـــروب؟

مـــا لـــي شـــقيت، وكـــل مـــا في الكـــون أخـــاذ عجيـــب؟

هـــا إن أنـــوار النهـــار تطـــل مـــن خلـــف الغـــروب

فتخـــضب الأمـــواج والآفـــاق والجبـــل الخـــصيب

هـــا أن أقـــدام الربيـــع تلامـــس الـــسهل الجـــدوب

فـــإذا بـــه يحيـــي وينبـــت رائـــق الزهـــر الرطيـــب

إن الوجـــود الرحـــب والغابـــات والأفـــق الخـــضيب

لم تخـــب نـــيران الحيـــاة بهـــا، فغيرهـــا القطـــوب

أمـــا أنـــا ففقـــدتها والليـــل مربـــده عـــصيب

والـــريح تعـــصف بـــالورود فعـــشت ســـخرية الخطـــوب

مهمـــا تـــضاحكت الحيـــاة فـــإنني أبـــداً كئيـــب

أصـــغي لأوجـــاع الكآبـــة... والكآبـــة لا تجيـــب

في مهجـــتي تتـــأوه البلـــوى ويعـــتلج النحيـــب

ويـــضج جبـــار الأســـى وتـــئنُّ غمغمـــة الكـــروب

إنـــي أنـــا الـــروح الـــذي ســـيظل في الـــدنيا غريـــب

ويعـــيش مـــضطلعاً بـــأحزان الـــشبيبة والمـــشيب

فكرة الفنّان

عــــش بالـــــشعور، وللـــــشعور فإنمـــــا
دنيـــــاك كـــــون عواطـــــف وشـــــعور

شــيدت علـــى العطـــف العميـــق، وإنهـــا
لتجـــف لـــو شـــيدت علـــى الـــتفكير

وتظـــــل جامـــــدة الجمـــــال، كئيبـــــة
كالهيكـــــل المتهـــــدم، المهجـــــور

وتظـــــل قاســـــية الملامـــــح جهمـــــة
كـــــالموت... مقفـــــرة بغـــــير ســـــرور

لا الحـــــب يـــــرقص فوقهـــــا، متغنيـــــاً
للنـــــاس بـــــين جـــــداول وزهـــــور

متـــورد الوجنـــات ســـكران الخطـــى

يهتـــز مـــن مـــرح، وفـــرط حبـــور

مـــــتكللاً بــــالورد ينثـــــر للـــــورى

أغـــــصان ((ورد اللـــــذة)) المنظـــــور

كـــلا، ولا الفـــن الجميـــل بظـــاهر

في الكـــون تحـــت غمامـــة مـــن نـــور

متوشـــحاً بالـــسحر يـــنفخ نايـــه الـــ

مـــشبوب بـــين خمائـــل وغـــدير

أو يلمـــس العـــود المقـــدس، واضـــعاً

للمـــــوت، للأيـــــام، للـــــديجور

مـــا في الحيـــاة مـــن المـــسرة، والأســـى

والـــــسحر، واللـــــذات، والتغريـــــر

أبــــداً، ولا الأمــــل المجـــنح منـــشد

فيهـــا بـــصوت الحـــالم المحبـــور

تلـــك الأناشـــيد الـــتي تهـــب الـــورى

عـــزم الـــشباب، وغبطـــة العـــصفور

واجعـــل شـــعورك في الطبيعـــة قائـــداً

فهـــو الخـــبير بتيههـــا المـــسحور

صـــحب الحيـــاة صـــغيرة ومـــشى بهـــا

بـــين الجمـــاجم والـــدم المهـــدور

وعـــدا بهـــا فـــوق الـــشواهق باسمـــاً

متغنيـــاً مـــن أعـــصر ودهـــور

والعقـــل رغـــم مـــشيبه ووقـــاره

مـــا زال في الأيـــام جـــد صـــغير!

يمـــــشي فتقرعـــــه الريـــــاح فينـــــثني

متوجعـــــاً، كالطـــــائر المكـــــسور

ويظـــــل يـــــسأل نفـــــسه متفلـــــسفاً

متنطعـــــاً في خفـــــةٍ وغـــــرور

عمـــــا تحجِّبُـــــه الكواكـــــب خلفهـــــا

مـــــن ســـــر هـــــذا العـــــالم المـــــستور

وهـــــو المهـــــشم بالعواصـــــف يـــــا لـــــه

مـــــن ســـــاذج متفلـــــسف مغـــــرور

وافـــــتح فـــــؤادك للوجـــــود وخلـــــه

للـــــيم، للأمـــــواج، للـــــديجور

للـــــثلج تنثـــــره الزوابـــــع للأســـــى

للـــــهول لـــــلآلام، للمقـــــدور

واتركــــه يقـــتحم العواصـــف هائمـــاً

فيُ أفقهـــــا المتلبـــــــد المقـــــرور

ويخـــوض أحـــشاء الوجـــود مقــــامراً

فيُ ليلــــــها المتهيــــــب المحــــــذور

حتـــى تعانقـــه الحيـــاة ويرتـــوي

مـــــن ثغرهــــا المتـــأجج المــــسجور

فتعـــيش فيُ الـــدنيا بقلـــبٍ زاخـــرٍ

يقـــظ المـــشاعر حـــالمٍ مــــسحور

فيُ نــــشوة صــــوفية قدســــيةٍ

هـــي روح هـــذا العـــالم المنظـــور



منْ أغاني الرعَاة

أقبـــل الـــصبح يغـــني للحيـــاة الناعـــسه

والربـــى تحلـــم في ظـــل الغـــصون المائـــسه

والـــصبَا تـــرقص أوراق الزهـــور اليابـــسه

وتهـــادى النـــور في تلـــك الفجـــاج الدامـــسه

أقبـــل الـــصبح جمـــيلاً يمـــلأ الأفـــق بهـــاه

فتمطـــى الزهـــر والطـــير وأمـــواج الميـــاه

قـــد أفـــاق العـــالم الحـــي، وغنـــى للحيـــاه!

فـــأفيقي يـــا خـــرافي واهرعـــي لـــي يـــا شـــياه

واتبعــيني يــا شــياهي بــين أســراب الطيــور

واملئــــي الــــوادي ثغـــاء ومراغـــاً وحبـــور

واسمعي همس السواقي وانشقي عطر الزهور

وانظـري الـوادي يغـشيه الـضباب المـستنير

واقطفـي مـن كـلأ الأرض ومرعاهـا الجديـد

واسمعـي شـبّابتي تـشدو بمعـسول النـشيد

نغــم يــصعد مــن قلــبي كأنفــاس الــورود

ثـم يـسمو طـائراً كالبلبـل الـشادي الـسعيد

وإذا جئنـــا إلى الغـــاب وغطانـــا الـــشجر

فـاقطفي مـا شـئت مـن عـشب وزهـر وثمـر

أرضـــعته الـــشمس بالـــضوء وغـــذاه القمـــر

وارتـوى مـن قطـرات الطـل في وقـت الـسحر

وامرحـي مـا شـئت في الوديـان أو فـوق الـتلال

واربـضي في ظلـها مـا شـئت إن خفـت الكـلال

وامضغي الأعشاب والأفكار في صمت الظلال

واسمعـي الـريح تغـني في شمـاريخ الجبـالْ

إن في الغـــاب أزاهـــيراً وأعـــشاباً عِـــذاب

ينـــشد النحـــل حواليهـــا أهازيجـــاً طـــراب

لم تـدنس عطرهـا الطـاهر أنفـاس الـذئاب

لا ولا طـاف بهـا الثعلـب في بعـض الـصحاب

وشـــذاً حلـــواً، وســـحراً وســـلاماً وظـــلال

ونـــسيماً ســـاحر الخطـــوة موفـــور الـــدلال

وغـــصوناً يـــرقص النـــور عليهـــا والجمـــال

واخـــضراراً أبـــدياً لـــيس تمحـــوه الليـــال

إن تملـي يـا خـرافي مـن حمـى الغـاب الظليـل

فزمــان الغــاب طفــل لاعــب عــذب جميــل

وزمــان النــاس شــيخ عــابس الوجــه ثقيــل

يتمــشى في مــلال فــوق هاتيــك الــسهول

لــك في الغابــات مرعــاي ومــسعاي الجميــل

ولى الإنــشاد والعــزف إلى وقــت الأصــيل

فــإذا طالــت ظــلال الكــلأ الغــض الــضئيل

فهلمــي نرجــع المــسعى إلى الحــي النبيــل

نشيد الجبَّار

أو

هكذا غنى بروميثيوس

سأعيشُ رغم الداءِ والأعداءِ

كالنسر، فوق القمة الشماء

أرنو إلى الشمس المضيئة هازئاً

بالسحب، والأمطار، والأنواء

لا ألمح الظل الكئيب ولا أرى

ما في قرار الهوّة السوداء

وأسير في دنيا المشاعر حالماً

غرداً، وتلك طبيعة الشعراء

أشـــــدو بموســـــيقى الحيـــــاة ووحيهـــــا

وأذيـــــــبُ روح الكــــــون في إنــــــشائي

وأصـــــيح للـــــصوت الإلهـــــي الــــذي

يحيــــــي بقلــــبي ميــــتَ الأصــــــداء

وأقــــول للقـــــدر الــــذي لا ينــــثني

عــــن حــــرب آمـــــالي بكــــل بــــلاءِ:

((لا يطفــــئُ اللـــــهب المــــؤججَ في دمــــي

مــــــوجُ الأســــــى، وعواصــــــفُ الأرزاء

فاهـــــدمْ فـــؤادي مــــا اســــتطعت فإنـــه

ســــيكون مثــــل الــــصخرة الــــصماء

لا يعــــرف الــــشكوى الذليلـــة والبكـــا

وضــــــراعة الأطفــــال والــــضعفاء

ويعـــيش كالجبـــار يرنـــو دائمـــاً

للفجـــر ... للفجـــر الجميـــل النـــائي

وامــــلأ طريقـــي بالمخـــاوف والـــدجى

وزوابـــــع الأشــــواك والحـــــصباء

وانـــــشر عليـــه الرعـــب وانثـــر فوقــــه

رُجُـــم الـــرَّدى وصـــواعق البأســـاء

ســـأظل أمـــشي رغـــم ذلـــك عازفـــاً

قيثـــــارتي مترنمـــــاً بغنـــــائي

أمـــــشي بـــــروح حـــــالمٍ، متـــــوهجٍ

في ظلمـــــــــــــــــــــة الآلام والأدواء

النـــور في قلـــبي وبـــين جـــوانحي

فعـــلام أخـــشى الـــسير في الظلمـــاء؟

إنـــي أنـــا النـــاي الـــذي لا تنتهـــي

أنغامــــــه مــــــا دام في الأحيــــــاء

وأنـــا الخـــضم الرحـــب، لـــيس تزيـــده

إلا حيــــــاةً ســــــطوةُ الأنــــــواء

أمـــا إذا خمـــدت حيـــاتي وانقـــضى

عمــــري وأخرســــت المنيــــة نــــائي

وخبـــا لهيـــب الكـــون في قلـــبي الـــذي

قـــد عـــاش مثـــل الـــشعلة الحمـــراء

فأنـــا الـــسعيد بـــأنني متحـــول

عـــن عـــالم الآثـــام والبغـــضاء

لأذوب في فجـــر الجمـــال الـــسرمد

يِّ وأرتـــوي مـــن منهـــل الأضـــواء

وأقـــــول للجمـــــع الــــذين تجـــشموا

هـــــدمي وودوا لــــو يخـــر بنـــــائي

ورأوا علـــى الأشـــواك ظلـــي هامـــداً

فتوهمـــــوا أنــــي قـــضيت ذِمـــــائي

وغـــدوا يـــشبون اللـــهيب بكـــل مـــا

وجـــدوا... ليـــشووا فوقـــه أشـــلائي

ومـــضوا يمـــدون الخـــوان ليـــأكلوا

لحمـــــي ويرتـــشفوا عليـــه دمـــائي

إنــــي أقـــول لهـــم بـــصوت حـــالم

وعلـــى شـــفاهي بـــسمة اســـتهزاء:

((إن المعـــاول لا تهـــد منـــــاكبي

والنــــار لا تــــأتي علـــى أعـــضائي

حتـــى ولـــو أمـــسيت جـــسماً ميتـــاً

ملقـــى لعـــصف الزعـــزع النكبـــاء

فـــارموا إلى النــــار الحــــشائش والعبـــوا

يــــا معـــــشر الأطفـــــال تحـــــت سمـــــائي

وإذا تمـــــــردت العواصـــــــف وانتـــــشى

بـــــــالهول قلـــــب القبـــــة الزرقـــــاء

ورأيتمـــــــــوني طــــــــائراً مترنمـــــــاً

فـــوق العواصـــف في الفـــضاء النـــائي

فـــارموا علـــى ظلـــي الحجـــارة واختفـــوا

خـــــوف الريـــــاح الهـــــوج والأنـــــواء

وهنـــــاك في أمـــــن البيـــــوت تبـــــادلوا

غـــــث الحـــــديث وميـــــت الآراء

وترنمـــــوا مـــــا شـــــئتم بـــــشتائمي

وتجـــــاهروا مـــــا شـــــئتم بعـــــدائي))

أمـــــا أنـــــا فـــــأجيبكم مـــــن فـــــوقكم

والـــشمس والـــشفق الجميـــل إزائـــي:

((مـــن جـــاش بـــالوحي المقـــدس قلبـــه

لم يحتفـــــل بحجـــــارة الفلتـــــاء))!!

الصباح الجديد

اسكتي يا جراح واسكني يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصباح من وراء القرون

في فجاج الهوى قد دفنت الألم
ونثرت الدموع لرياح العدم
واتخذت الحياة معزفاً للنغم
أتغنى عليه في رحاب الزمان

وأذبت الأسى في جمال الوجود
ودحوت الفؤاد واحة للنشيد

والضيا والظلال … والشذى والورود
والجوى والشباب … والمنى والحنان

اسكتي يا جراح … واسكني يا شجون
مات عهد النواح … وزمان الجنون
وأطل الصباح … من وراء القرون

في فؤادي الرحيب … معبد للجمال
شيدته الحياة … بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاة … في خشوع الظلال
وحرقت البخور … وأضأت الشموع

إن سحر الحياة … خالدٌ لا يزول
فعلام الشكاة … من ظلام يحول
ثم يأتي الصباح … وتمر الفصول
سوف يأتي الربيع … إن تقضى ربيع

اسـكتي يـا جـراح — واسـكني يـا شـجون

مـات عهـد النـواح — وزمـان الجنـون

وأطـل الـصباح — مـن وراء القـرون

مـن وراء الظـلام — وهـدير الميـاه

قـد دعـاني الـصباح — وربيـع الحيـاه

يـا لـه مـن دعـاء — هـزّ قلـبي صـداه

لم يعـد لـي بقـاء — فـوق هـذي البقـاع

((الـوداع الـوداع — يـا جبـال الهمـوم))

((يـا ضـباب الأسـى — يافجـاج الجحـيم))

((قـد جـرى زورقـي — في الخـضم العظـيم))

((ونـشرت القـلاع — فـالوداع الـوداع))!!



خلاصة عامة

تمثل إشكالية الضياع، والتيه، والإحساس بالأسر، أقنوماً جوهرياً في رؤية الشابي إلى العالم والفن، ولا أدل على ذلك من عناوين القصائد نفسها، التي تسمى الزيغان / التوه، أو تومئ إليه. يتبدى ذلك مثلاً في العناوين التالية: ((أغاني التائه))، ((إلى قلب التائه))، ((الأشواق التائهة))، ((الجنة الضائعة))، وهو في قصيدة ((مناجاة عصفور)) يعبر عن إحساسه بالأسر، فيقول مطابقاً بينه وبين العصفور:

غـــرد ففـــي قلـــبي إليـــك مـــودة

لكـــن مـــودة طـــائر مأســـور

هجرتـــه أســـراب الحمـــائم وانـــبرت

لعذابـــه جنيـــة الـــديجور

ويرسم الشابي لنفسه صورة الزيغان، في قصيدة أخرى:

أنـــا في درب الحيـــاة الغامـــضة

تائـــه حـــيران

ويقارن في موقع آخر، بين حاضره وماضيه، فيلحظ أن الأمر متناقص بين الاختلاف:

بالأمس قد كانت حياتي كالسماء الباسمه

واليوم، قد أمست كأعماق الكهوف الواجمه

وتتطاوح المسافات بين كآبة الشاعر، وكآبة الآخرين:

كآبة الناس شعلة ومتى

مرت ليال خبت مع الأمد

أما اكتئابي فلوعة، سكنت

روحي وتبقى بها إلى الأبد

هكذا يتوضح أن ليل الأسر طويل على الشاعر، وغامض، وأبدي، والمعضلة أن الشابي بقي يجوس في المجهول، لم يدرك سر العالم، فصاح في ((صميم الحياة)) متحسساً دروب الكون الغائم، متسائلاً:

يا صميم الحياة إني وحيد

مدلج تائه فأين شروقك؟

ولا شك أن عنف الاصطدام مع العالم الخارجي، هو الذي خلخل سكونية الشاعر، ورمى به في رهج البلبلة، والتسآل، والحيرة تلت الحيرة المهووسة، الزاخرة بالأسئلة، والمثقلة بعناقيد الفهم. وكما يقول ابن العربي: ((كلما زادت الحيرة زاد العلم)). والعلم الذي استنبطه الشابي من تجربته الوجودية الصادقة هو ـ بدئياً ـ امتشاق الأسئلة الصعبة في وجه هذا العالم الماحل الغارق في السديم.

وكما تساءل البير كامي عن جدوى التكرارية، متمثلة في ترادف الأيام الطائرة ((الاثنين ـ الثلاثاء ـ الأربعاء ـ الخميس ـ الجمعة ـ السبت ـ الأحد ـ الاثنين ـ الثلاثاء ـ ....)) والأيام تتوالى وتتتابع، والدوار لا ينتهي... فإن الزمن لدى الشابي ((سأم)) لا يذهب أمامياً، وإنما هو يلف، به، معه، حوله، متراجعاً منكفئاً على أعقابه. إن الزمن الشابي ثابت في الزمان. ومن هنا نفهم سبب ذلك الدوار الغامض السري، الذي يصيب الشاعر الواقف مذهولاً في مركز دائرة الزمن الدائري:

سـأم هـذه الحيـاة معـاد

وصـباح يكـر في أثـر ليـل

أسئلة الشابي لا أجوبة لها، هو الموقف الانكاري الحاسم ((ما جدوى الحياة))؟ ومن هنا تتأكد الثنائيات الضدية: العلو / الهدم / التشييد / الخراب، التكوين / الوهم، الحياة / الكرب، الذوى / النمو، فتزدحم كلها في الأبيات التالية:

أرى هيكـل الأيـام يعلـو، مـشيداً

ولا بـد أن يـأتي علـى أمـسه الهـدم

فيـصبح مـا قـد شـيد الله والـورى

خرابـاً، كـأن الكـل في أمـسه وهـم

فقـل لـي: ((مـا جـدوى الحيـاة وكربهـا

وتلـك الـتي تـذوى، وتلـك الـتي تنمـو؟))

فأن يعجز المرء على فهم أوالية الملكوت، وعلى أن يفك سر الكون، الأولاني، أمر وارد، ومحتمل، ومشروع أيضاً. أما ألا يدرك حتى غاية ذلك، فكارثة لا تطاق في عرف أبي القاسم الشابي:

((نحن نمشي، وحولنا هاته الأكوان تمشي... لكن لأية غاية؟))

هكذا، يجد الشابي نفسه على ((سطح من الصفيح الساخن)) فيرتبك، و((تطل من رأسه الظنون، وتشد أذنه)) فيتشوش ذهنه، ويتحول إلى فوضوي جبار، عنيد، فيعلنها قاصمة صاعقة:

((لو كان هذا الكون في قبضتي ألقيته في النار، نار الجحيم))

بهذا، يعدم الشابي العالم، ويرمي بالملكوت إلى العدم. هو إذن موقف عدمي باكتمال المعنى. يتجلى ذلك أكثر في علاقة الشاعر بالصانع الأول: الله. لقد بات الأمر إشكالياً إذن، فقد توهج السؤال، وتوغل في الملك والملكوت، وتأوج متعالياً نحو العرش الإلهي صاعقاً كهربائياً:

((خبروني، هل للورى من إلاه، راحم ـ مثل زعمهم ـ أواه

يخلق الناس باسماً، ويواسيهم، ويرنو لهم بعطف الاهي

ويرى في وجوههم روحه السامي، وآيات فنه المتناهي

إنني لم أجده في هاته الدنيا، فهل خلف أفقها من إلاه!؟))

لكن إيمان الشاعر بالله، سرعان ما يعود، فهو أعمق من أن يزعزعه الحدثان، فيعبر الشاعر عن ندمه، وينكفئ، متجهداً، ملتمساً الصفح والغفران:

((يا إلاهي! قد أنطق الهم قلبي بالذي كان...، فاغتفر يا إلاهي!))

على أن إيمان الشابي بالله راسخ شامخ، لا مجال للطعن فيه، فهو يستنفر ((حماة الدين)) أن يتصدوا لأعداء الإسلام، ويدافعوا عن مبادئه السامية المقدسة:

لحى الله من لم تستثره حمية على دينه، إن داهمته العظائم

لحى الله قوماً لم يبالوا بأسهم يصوبها نحو الديانة ظالم

بذلك، يتأكد أكثر موقف الشابي العقائدي، وتتوضح، أيضاً، به، يقينته الإسلامية، ودرجة ارتباطه معه. لكن الأهم أن لذلك الارتباط / الانتماء مدى آخر، أو، أفقاً آخر، هو التنافذ: Osmose بين العقائدية، والشعرية، إذ يتجسد ذلك مثلاً في تشبيه الشابي للغاب بالمحراب:

والكون من طهر الحياة كأنما هو معبد، والغاب كالمحراب))

إننا نتساءل لماذا يرى الشابي إلى الغاب بهذه الرؤية التقديسية؟ ماذا يمثل الغاب إذن بالنسبة إليه، وإلى الرومانطقيين جميعاً؟ ما موقف الشاعر من المجتمع والناس؟ ما مدى ارتباطه بهم؟ وانسجامه معهم؟ ما هي - بكلام آخر - حدود الاتصال و / أو الانفصال بين الأنا والآخر؟

بدءاً، ينبغي التوكيد على أن أبا القاسم الشابي، هو، شاعر الحساسية المفرطة، والانفعالية المفرطة، والانفعالية المتوفزة، والرقة، والشفافية، والحسّ الناعم، اللطيف:

((والـــشقي الـــشقي مـــن كـــان مثلـــي في حـــساسيتي، ورقـــة نفـــسي))

كما أدت به حساسيته، وشفافيته إلى أن يلوذ بساحة نفسه:

((لم أجــد في الحيــاة لحنــاً بــديعاً يــستبيني ســوى ســكينة نفــسي))

ولقد وجد في المرأة الجميلة، شعاعاً من أمل:

((إن في المــرأة الجميلــة ســحراً عبقريــاً، يــذكي الأســى، وينيمــه))

وألفى في الفن والشعر طائراً ناعم الجناح:

((يـــا طـــائر الـــشعر! روح علـــى الحيـــاة الكئيبـــه

وامـــسح بريـــشك دمـــع القلـــوب فهـــي غريبـــه))

أما الطبيعة، بشكل عام، والغاب بصفة خاصة، فيمثلان بالنسبة لأبي القاسم الشابي، بوابة الخلاص، ودوحة السلام الفيحاء، ولكن الغاب ظل جامداً، حيادياً:

((وجئـت إلى الغـاب أسـكب أوجـاع قلـبي نحيبـاً، كلفـح اللـهيب

نحيبــاً تــدافع في مهجــتي، وســال يــرن بنــدب القلــوب

فلـــم يفهـــم الغـــاب أشـــجانه))

هكذا، إذن، تكتمل محاصرة الشاعر. بل إنها محاصرة مكثفة، من الدرجة الثانية. فالملاذ ليس سلاماً، لكنه وهم سلام؛ وليس حريراً، لكنه وهم حرير،

وليس صديقاً، لكنه عدو في ثوب صديق ـ ومن هنا، مطاردة الشاعر المستمرة، المتواصلة، لخيال / ظل / طيف الحرية، المتلاشي في الهواء، أو، في المدى، كما السراب:

((أنا شاعر. والشاعر يجب أن يكون حراً كالطائر في الغاب،

والزهرة في الحقل، والموجة في البحار...))

ومن هنا، شرعية التساؤل عن جدوى استمرار العلاقة بين الأنا والآخر ـ فالتنازل من جانب واحد ـ والناس يتجاهلون الفرادة والعظمة، ولا يعترفون بالجميل للشاعر العبقري:

حتى العباقرة الأفذاذ، حيهم

يلقى الشقاء وتلقى مجدها الرمم

وبعد هذا كله، هل سيموت الشاعر يأساً؟ كلا. لقد تحول ـ إلى الرائي الأكبر، النبي العراف، الذي يرى ما لا يرى الآخرون. إنه يتلمح المستقبل في صفاء المرآة إنها الرؤية المستقبلية كأروع ما تكون، رغم الحزن النازف، والغربة المكثفة، يقول الشابي، في بعض نصوص مذكراته:

((الآن أدركت أنني غريب بين أبناء بلادي ـ وليت شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب البشر، فترتل أغاني أرواح الشباب المستيقظة، وتدرك حنين قلبي وأشواقه أدمغة مفكرة سيخلقها المستقبل البعيد...))

وعلى أية حال، فإذا ضاق العالم الظاهري، بفضاءاته اللامتناهية، وبحاره، وجباله، وسهوبه، وصحاريه، وكواكبه، وأشجاره، وأقماره.... فإن لأبي القاسم

الشابي. فلكاً باطنياً، تخيلياً، صوفياً، يقبع فيه الشاعر كلما مل العالم الفاني المزيف.

هكذا، استبدل أبو القاسم الشابي المثل / البراني، بالممثول/ الجواني هكذا، تلمس الشاعر فراشة الروح/ ياقوتة القلب.

والقلب، هو أقنوم التجربة الشابية بامتياز.

وقلما نعثر على نص أدبي للشابي لا يذكر فيه قلب الشاعر، المليء بالمحبة، والطافح بأشياء العالم كلها:

كل ما هب، وما دب، وما نام، أو حام على هذا الوجود

من طيور، وزهور، وشذى وينابيع، وأغصان تميد

وبحار، وكهوف، وذرى وبراكين، ووديان، وبيد

وضياء، وظلال، ودجى وفصول، وغيوم، ورعود

وثلوج، وضباب عابر وأعاصير، وأمطار تجود

وتعاليم، ودين، ورؤى وأحاسيس، وصمت، ونشيد

كلها تحيى بقلبي حرة غضة السحر، كأطفال الخلود

وليس هذا خيالاً غرائبياً، أو وهمياً، أو سريالياً، إنما هو تماهي العالم الأكبر: macrocosme في العالم الأصغر: microcosme ، وحلول الكل في الواحد ـ وكما قال جلال الدين الرومي:

((لو فلقت ذرة إلى نصفين، لوجدت شمساً، وكواكب تدور حولها))

لكأننا بالشابي، قد استبدل الطبيعة أو الغاب، بالقلب/ بالفلك. أو أن الغاب قد تحول إلى مدينة القلب، وسكن منها في الصميم. ولم لا نقول: إن الغاب قد أصبح تنويعاً على القلب، أو أن القلب لم يكن ـ في واقع الأمر ـ سوى الغاب إياه. نابضاً بالحياة في جسد الشاعر.

والحق، فإننا نلقي صورة القلب/ الفلك. في كثير من الموانع الأخرى. مثل قصيدة: ((صلوات في هيكل الحب)) مقطعها الثالث. أو قصيدة ((الأبد الصغير)) بحذافيرها...

بطبيعة الحال، هذا الموقف من المجتمع والناس، والطبيعة، والغاب، هو موقف عام، مشترك، بين كل التيار الرومانطيقي، بدءاً من **جان جاك روسو** في القرن الثامن عشر، وهو الذي عبر عن الحصار بصرخته الشهيرة: ((إني أختنق في الكون)). حتى **لامارتين**، **وهوغو ودى موسيه** مروراً **بشاتوبريان**، في فرنسا. **وكيتس**، **ووردزورث**، **ونوفاليس**، **وشيلنغ**، **وغوته**، في غير فرنسا. ولعل أحسن من يمثل هذا المنحى عند العرب، هي مدرسة **أبولو** خاصة، ممثلة في **أبي القاسم الشابي**، الذي يمكن اعتباره أنقى عناصرها.

ولا ينبغي، من ناحية أخرى، أن نتصور الشابي آلة ميكانيكية ذات استجابات شرطية إلزامية سائبة، يمكن التنبؤ بها مسبقاً. كلا. فللشابي علاقات وطيدة مع من يقدرونه حق قدره، ويلاطفونه، من بين أهله، ورفاقه من المثقفين، وغير المثقفين، تشهد بذلك مذكراته، ورسائله، وأشعاره أيضاً.

لكن، ما يمكن الجزم به ، هو أن الملمح السائد، أو الغالب، أو المهيمن على شخصية الشابي، هو النزوع إلى التفرد والانطواء، والإحساس بالحيرة والغربة، والتوحد، حتى مع أقرب الناس إليه ، ، والشابي نفسه، يقر في مذكراته، بأنه رجل ((عصبي))، حاد المزاج ـ وبكلمة، فإن انفرادية الشابي، هي انفرادية خلاقة[1] .

---

(١) مقتطفات كاملة من دراسة نقدية هامة بقلم الناقد والأديب التونسي الكبير محمد كمال المدائني، اعتماداً على مجلة الشعر التونسية.

ويستريح شاعرنا اليوم في ضريحه، بعد أن أدى رسالته الحياتية كاملة نحو شعبه، ونحو الإنسانية ونحو الأدب ورسالته العظيمة أداها كاملة لأنه لم يكن خاضعاً لمزاجه النفسي، أداها على أحسن وجه، بالرغم من حياته القصيرة. وأداها كاملة لأنها أطلقت الشرارة الأولى، التي قال عنها ذات يوم أنها ستطيح بأصنام العبودية... وبالتقاليد السلوكية المتزمتة:

يـــا شـــعب قـــد خلقـــت فيـــك شـــرارة
ستـــــشب يومـــــاً نارهـــــا بـــــضرام

* * * * * * * * * * * * * * *

* * * * * * * * * * * * *

* * * * * * * * *

* * * * *

* * *

* *

*

مصادر ومراجع الكتاب

❖ أغاني الحياة، أبو القاسم الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٦٦م.
الشابي حياته ـ شعره، أبو القاسم محمد كرّو، المكتبة العلمية، بيروت ١٩٥٢م.

❖ كفاح الشابي أو الشعب والوطنية في شعره، أبو القاسم محمد كرو، دار الشرق الجديد، بيروت ١٩٥٤م.

❖ قضايا الشعر المعاصر، الدكتور أحمد زكي أبو شادي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٩م.

❖ أبو القاسم الشابي ملامح الموت والحياة في شخصية الشابي وشعره، دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠١م.

❖ ديوان أبو القاسم الشابي (الأعمال الكاملة) دار العودة، بيروت ١٩٧٢م.
الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، الدكتور ميشال خليل جحا، دار العودة، بيروت ١٩٩٩م.

❖ مجلة الشعر التونسية العدد (٨) ١٩٨٤م.

❖ الشابي النبي المجهول، مصطفى الحبيب بحري، وزارة الثقافة السورية ١٩٦٠م.

الفهرس